قال ابن شرف القيروانى:

"وأما "على بن الجهم" فرشيق الفهم... وله فى الغزل الرصافية، وفى العتاب الدالية، ولو لم يكن له سواهما لكان أشعر الناس بهما".

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

ينبت الشعراء فى أرض الشعر الخصبة، ويشب الأدباء فى وطن الأدب، الرفيع، ويترعرع الفن بين جوانح الشعراء والأدباء فيخرجونه فى درجة عالية من الصفاء؛ وفى أدبنا العربى ما أكثر الشعراء والأدباء ممن سار ذكرهم فى الأقطار جميعها والأنحاء، نذكرهم جميعاً بالفضل والثناء، ونخص منهم هؤلاء امرأ القيس والنابغة وأبا العلاء، والأعشى وعنترة والخنساء، والمتنبى وأبا فراس والسرى الرفاء، ومن أصحاب النجابة والفهم الذين أسهموا فى الشعر بأرفع سهم نذكر شاعرنا "على بن الجهم" الذى قال فيه ابن شرف القيروانى: "وأما "على بن الجهم" فرشيق الفهم.. وله فى الغزل الرصافية وفى العتاب الدالية، ولو لم يكن له سواهما لكان أشعر الناس بهما"(١) و"على بن الجهم" هو القائل:

وما أنا ممن سار بالشعر ذكره ... ولكن أشعارى يسيرها ذكرى
وللشعر أتباع كثير ولم أكن ... له تابعاً فى حال عسر ولا يسر
وما الشعر مما أستظل بظله ... ولا زادنى قدراً ولا حط من قدرى
ولكن إحسان الخليفة "جعفر" ... دعانى إلى ما قلت فيه من الشعر

والقائل:

يعاقب تأديباً ويعفو تطولاً ... ويجزى على الحسنى ويعطى فيجزل

(١) انظر: أعلام الكلام لابن شرف القيروانى ص(٢٣).

ولست ببحر أنــت أعــذب مــوردا وأنفــع للراجــى نــداك وأشــمل

إنه صاحب الأبيات السابقة، وهى مصابيح كاشفة وأنوار متلألئة فى سماء الكلمة الناطقة، وثمرات فى النخلة الباسقة؛ تلك التى أصلها ثابت وفرعهــا فــى السماء.

ديوانه لعلى بن الجهم ديوان وصفه الخطيب البغدادى فــى تــاريخ بغــداد ٣٦٧/١١ بقوله: "له ديوان شعر مشهور" ووصفه ابن خلكــان ٤٤١/١ بقولــه: "وديوان شعره صغير" ونقل منه بعض الأمثلة. وقال صاحب كــشف الظنــون: "ديوان على بن الجهم السامى المتوفى ٢٤٩هــ" فدل على أنه لم يره، ولم يــذكر واحد من هؤلاء اسم من جمع ذلك الديوان. ولكن ابن النديم ذكر فى الفهرســت ص١٥١ أن أبابكر محمد ابن يحيى الصولى المتوفى ٣٣٥هــ صنف شعر على بن الجهم على حروف المعجم. ويقول الأستاذ خليل مردم بك رئيس مجمع اللغة العربية الأسبق: "أما هذا الديوان الذى عنينا بتحقيقه ونشره فنسخته المخطوطــة فريدة فى العالم، محفوظة فى خزانة الإسكوريال بإسبانياً تحت رقــم ٣٦٩ مــن فهرس ديرنبورج ويدخل هذا الديوان فى اثنتين وأربعين صفحة، مــسطرة كــل صفحة سبعة عشر سطراً جاء فى آخره: "تم شعر على بن الجهم والحمد لله حق حق حمده وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً آمين فى العشر الأوائل من شعبان المعظم سنة ١٠٠٢هــ ولم يذكر الناســخ اســمه ولا تاريخ النسخة التى نقل عنها، وبعد أن فرغت من تحقيق الديوان والتعليق عليــه، وظهر لى أنه لم يستوعب جميع شعر على بن الجهم، بدا لى أن أجعل له تكملــة أجمع فيها ما ليس فى الديوان من شعره، فتوفرت على مراجعة طائفة من كتــب الأدب والتراجم والتاريخ مخطوطها ومطبوعها، فــاجتمع لــدى مــا يــضارع الديوان، فأفردتها على حدة، وأوردتها مرتبة على حروف المعجم وذكرت معهــا

مصادرها، وألحقتها بالديوان، ولا أشك فى أن ما فاتنى أكثر مما اطلعت عليه[1].

وأرجو أن يكون فى نشر هذا الديوان حافز على الاستقصاء فى دراسة هذا الشاعر، وجمع أشعاره وأخباره.

وعلى هذا الديوان فى طبعته الثالثة عام ١٩٩٦م قامت هذه الدراسة لشعر على بن الجهم من خلال أربعة أغراض شعرية معه لنتبين ملامح النجابة والفهم من خلال هذه الدراسة لشعره الذى طالما أسعدنا به، وثرى المكتبة العربية بروائعه.

نشأ شاعرنا "على بن الجهم" بن بدر بن الجهم بن مسعود القرشى السامى فى أخريات القرن الثانى وفجر القرن الثالث الهجرى ببغداد، وبغداد فى ذلك الزمن حاضرة الدنيا علماً وأدباً وحضارة، وربى فى بيت علم وفضل؛ فقد كان أخوه الأكبر "محمد بن الجهم" من أنداد "الجاحظ"، جامعاً بين ثقافتى العرب واليونان، معدوداً من فلاسفة المتكلمين وأهل الجدل، واسع الرواية للأدب، يجالس المأمون، ويناظر الزنادقة بحضرته، وله مجلس مع المأمون يدل على سعة روايته للشعر. ذكره صاحب الأغانى. وقد كان "الجاحظ" يكثر من ذكره والنقل عنه فى كتبه.

---

(١) كان هذا فى الطبعة الأولى والثانية، أما فى هذه الطبعة وهى الثالثة فقد وجدنا الديوان وجعلنا قصائده التى كانت موجودة فى الديوان والتكملة وصلة التكلمة مرتبة على حروف المعجم بعد أن كان مقسماً إلى ثلاثة أقسام أولا: الديوان المخطوط، ثانياً التكملة التى جمعها المحقق، وثالثاً صلة التكملة التى نشرت أولاً فى مجلة المجمع العلمى العربى ص (٤٤) م ٢٦.

وفى هذه البيئة الزاخرة بالعلم والأدب نشأ "على بن الجهم"، وصحب الكتب وأحب مطالعتها وأنس بمسامرتها، ومن يطالع شعره يجده يذكر العلم ويتمدح به، ويذم الجهل بأساليب مختلفة منها قوله:

إذا لم يشب رأس على الجهل لم يكن على المرء عار أن يشيب ويهرما

وقوله:

لم تنقصوه وقد ملكتم ظلمه ما النقص إلا أن يكون جهولا[1]

صحب "على بن الجهم" شعراء بغداد، وغيرهم من الطارئين عليها، وكان يختلف إلى قبة الشعراء فى المسجد الجامع ببغداد، ينشد شعره ويسمع وينتقد، والتقى فيها بـ"أبى تمام" وانعقدت بينهما أواصر الصداقة والمحبة، وأعجب كل منهما بصاحبه، وأعرب له بشعره عما يكنه له من الود، وبقيا متحابين حتى فرق بينهما الموت، من ذلك قصيدة ل"أبى تمام" ودع بها "على بن الجهم" وقد أراد سفراً أولها:

هى فرقة من صاحب لك ماجد فغداً إذابة كل دمع جامد

وقصيدة أولها:

بأى نجوم وجهك يستضاء أبا حسن وشيمتك الإباء

ومن شعر "على بن الجهم" فى "أبى تمام" قوله:

غاضت بدائع فطنة الأوهام وعدت عليها نكبة الأيام

---

(١) انظر: ديوان "على بن الجهم" تحقيق خليل مردم بك ص (٢٢) دار صادر، بيروت، لبنان، سنة ١٩٩٦م.

وغدا القريض ضئيل شخص باكيا يشكو رزيته إلى الأقلام
وتأوهت غرر القوافى بعده ورمى الزمان صحيحها بسقام
أودى مثقفها ورائض صعبها وغدير روضتها أبو تمام

ظهرت ملامح النجابة والفهم على شخص "على بن الجهم" منذ صغره؛ فقد طلب أبوه من شيخ الكتاب أن يحبسه يوماً؛ لأنه يثير ضجة فى البيت؛ فكتب إلى أمه:

يا أمتا أفديك من أم أشكو إليك فظاظة الجهم
قد سرح الصبيان كلهم وبقيت محصوراً بلا جرم

قال على: وهو أول شعر قلته وبعثت به إلى أمى؛ فأرسلت إلى أبى: "والله لئن لم تطلقه لأخرجن حاسرة حتى أطلقه".

وكتب يوماً على لوحه إلى بنت صغيرة كانت معه:

ماذا تقولين فيمن شفه سهر من جهد حبك حتى صار حيرانا

فكتبت له البنت رداً تقول فيه:

إذا رأينا محباً قد أضر به جهد الصبابة أولياه إحسانا[1]

لا يقل هذا الشعر روعة عن شعر كبار شعراء الغزل المشهورين فى العصر الإسلامى والأموى؛ فهو شعر موزون مقفى مملوء بالمعانى الجميلة التى عبرت بصدق عما فى نفسه شاكياً مرة ومحباً مرة أخرى.

(١) انظر: السابق ص (٨).

بجانب هذا جمع "على بن الجهم" بين الثقافة والفتوة، وقول الشعر والعلم به وأدب النفس وشرف النسب، والثروة والجاه. سيفه ولسانه فى الصرامة والمضاء سواء، وكان إلى ذلك ديناً، له رأى واضح فى الدين، يجاهر به ويدافع عنه، وكان يزور الإمام أحمد بن حنبل ويسأله مسائل فى القدر والصفات، وفى شعره شواهد كثيرة يظهر فيها أثر الكتاب والسنة[١]".

قال أبو بكر الصولى: "سمعت أبا إسحاق الحربى يقول: كان على ابن الجهم من كملة الرجال". وكان معتداً بنفسه ونسبه، حسن المحاضرة والمفاكهة" قوى العارضة، يضطلع بأفانين الحديث والسمر، وكان ظاهر النعمة مترفاً، له خدم وعبيد وحجاب، وفى داره عدد من حسان الإماء"[٢].

فى خلافة المأمون (١٩٨هـ) أخذ اسم "على بن الجهم" يشتهر بالشعر، وروى الناس شعره حتى بلغ المأمون. قال "محمد بن الجهم": "دعانى المأمون يوماً فقال: قد نبغ لك أخ يقول الشعر فأنشدنى له، فلم أذكر إلا قوله فى الكلب:

أوصيك خيراً به فإن له ... سجية لا أزال أحمدها
يدل ضيفى فى غسق الليل ... إذا النار نام موقدها

فقال المأمون: أحسن الموصى بالكلب وأمر لى بمال[٣].

ارتحل "على بن الجهم" إلى خراسان ثم الثغور والجبال ومصر والشام، وأقام فى كل منها مدة، والمظنون أنه بدأ أسفاره هذه فى أواخر خلافة المأمون.

---

(١) انظر: الديوان ص (٨).
(٢) انظر: الديوان ص (١٠).
(٣) انظر: السابق ص (٢٥).

شعـــره

كان "على بن الجهم" عالماً بالشعر، قال أبو بكر الصولى: "ويصحح علـــم على بالشعر ما جاء به عبد الله بن الحسين قال: قال لى البحترى: دعانى "علـــى بن الجهم" فمضيت إليه فأفضنا فى أشعار المحـــدثين إلـــى أن ذكرنـــا "أشـــجع السلمى"، فقال لى: إنه يخلى، وأعادها مرات ولم أفهمها، وأنفت أن أســـأله عـــن معناها، فلما انصرفت فكرت فى الكلمة، ونظرت فى شعر "أشجع السلمى"، فـــإذا هو ربما مرت له الأبيات مغسولة ليس فيها بيت رائع، وإذا هو يريد هذا بعينـــه؛ أنه يعمل الأبيات فلا يصيب فيها ببيت نادر، كما أن الرامى إذا رمى برشقه فلـــم يصب فيه بشىء قيل أخلى. قال: "وكان "على بن الجهم" عالماً بالشعر"(١).

إن شاعراً يفهم ما يقع فيه نظراؤه من أخطاء فنية تبلغ حد الإخلاء؛ أى لا يجد فى شعرهم ما يقف عنده مشدوهاً مبهوراً بروعة ولا بلفتة جيـــدة، لابـــد أن يكون حاز قصب السبق شعراً ونقداً، وأن يكون علمه بالشعر أكبر مـــن شـــعره وشعره أجود من شعر غيره، ولابد أن يكون صاحب ما أثبتنا من أبيـــات نالـــت لدينا استحساناً حتى التقطناها من قصائده المتعددة، ومـــن مقطوعاتـــه المختلفـــة لتكون دافعاً لنا على متابعة السير خلال هذه الدراسة لشعره ولنبرز أهم ملامـــح النجابة والفهم التى أنزلته تلك المنزلة بين شعراء عصره؛ بـــل فـــى مقـــدمتهم أحياناً.

لقد كان "على بن الجهم" عالماً بالشعر وفنونه قديمه ومحدثه، واسع الرواية له، بصيراً بنقده، يفاضل بين الشعراء ويحكم بينهم. قال "أبـــو بكـــر الـــصولى": "حدثنى محمد بن موسى قال: "سمعت "على بن الجهم" ذكر "دعبلاً" فكفره ولعنه،

(١) انظر: الديوان ص (٢٣).

وطعن على أشياء من شعره، وقال: "كان يكذب على "أبى تمام"، ويضع عليه الأخبار، والله ما كان إليه ولا مقارباً له، وأخذ فى وصف "أبى تمام"، فقال له رجل: والله لو كان أبو تمام أخاك زدت على مدحك له، فقال: إلا يكن أخاً بالنسب، فإنه أخ بالأدب والدين والمودة، أما سمعت ما خاطبنى به:

إن يكد مطرف الإخاء فإننا نغدو ونسرى فى إخاء تالد
أو يختلف ماء الوصال فماؤنا عذب تحدر من غمام واحد
أو يفترق نسب يؤلف بيننا أدب أقمناه مقام الوالد[1]

أشرنا إلى ذلك من قبل أن الذى يجمع الأدباء والشعراء مهما اختلفت الأنساب وتفرقت الأصول وتعددت الآباء والأمهات هو الأدب؛ فهو الأب الذى ينتسبون جميعاً إليه.

إن من يطالع شعر "على بن الجهم" سيجده قد تعددت أبوابه والتى يمكن تصنيفها إلى المديح والرثاء والفخر والهجاء والوصف والغزل والحكمة، وهناك باب جديد لعله أول من نظم فيه، هو نظم حوادث التاريخ الإسلامى[2] وقد تخيرنا من هذه الأبواب أربعة هى؛ المدح والهجاء والفخر والرثاء لدراستها فنياً بهدف إظهار واستخراج ملامح النجابة والفهم التى ظهرت ولازمت الشاعر منذ صغره حتى استوى عوده وترعرعت فروعه فى عالم الشعر وآتت أكلها ثماره فى كل حين فوجد الأدباء فيها متعتهم، والنقاد ضالتهم.

---

(١) انظر: الديوان ص (٢٣).
(٢) انظر: السابق ذاته ص (٣٧)، (٤٣).

والسؤال هو: لماذا المديح والهجاء والفخر والرثاء كانت محل الدراسة؟ نقول: لأن المديح والهجاء أكبر فرعين فى شجرة الشعر العربى يليهما الفخر والرثاء؛ فعلى الأربعة المعول فى الدراسة، وعلى الله العون فى إتمامها.

١- المديح:

إذا كان الشعراء منذ الشاعر الأول حتى العصر العباسى – كلهم أو بعضهم – قد أصابوا غنى وثراء أو أصابوا شهرة أو نالوا منزلة عن طريق مدح السادة والقادة الذين عاصروهم واتصلوا بهم ونظموا فيهم قصائد المديح؛ فإن شاعرنا "على بن الجهم" لم يكن من هؤلاء الشعراء؛ بل كان نسيج وحده أو من بعض من لم ينتظر شهرة ولم يطلب غنى وثراء؛ فقد كان نابه الذكر غنياً موسراً قبل قول الشعر ونظمه، وكان تقريب الخلفاء له وإحسانهم معاملته فى مجالسهم هو الذى دفعه إلى مدحهم؛ فكان مدحه إياهم جزاء إحسانهم إليه، فهو المكافئ لهم بشعره جزاء إحسانهم. وما أثبته محقق الديوان من أن "على بن الجهم" كان من أسرة ذات ثراء ومنزلته عالية من الشرف والحسب حق كله؛ فقد ولى "المأمون" أباه "الجهم بن بدر" بريد اليمن وطرازها وولاه الثغر، كما ولاه شرطة بغداد، وكان أخوه "محمد بن الجهم" مقرباً من المأمون، وقد ولاه عدة ولايات فى بلاد فارس، وولاه "المعتصم" دمشق سنة ٢٢٥هـ، وكان عمه "إدريس بن بدر" من الرؤساء والوجهاء رثاه الشاعر "أبو تمام"، وكان ابن عمه "عثمان بن إدريس" ممن قصدهم" أبو تمام"[١].

(١) انظر الديوان ص (٦، ٧).

و"على بن الجهم" تولى مظالم حلوان[1] فى خلافة "المعتصم" ٢١٨/ ٢٢٧هـ" قال على: "كنت أتولى مظالم حلوان وكان الحارثى يجىء إليها فأتانى مرة وظهر كوكب الذنب فى تلك الليلة؛ فقلت:

لما بدا أيقنت بالعطب فسألت ربى خير منقلب
لم يطلعا إلا لآبدة الحارثى وكوكب الذنب

وقد خلق "على بن الجهم" شاعراً؛ فانصرف إلى رواية شعر العرب والمحدثين وصحب شعراء بغداد وغيرهم من الطارئين عليها، وكان يختلف إلى قبة الشعراء فى المسجد الجامع ببغداد ينشد شعره ويسمع وينتقد، ولم تستهوه الفلسفة اليونانية كما استهوت أخاه محمداً[2].

قال ابن رشيق: "قال "على بن الجهم" فى مدح "المتوكل":

وما الشعر مما أستظل بظله ولا زادنى قدراً ولا حط من قدرى

ثم قال:

ولكن إحسان الخليفة جعفر دعانى إلى ما قلت فيه من الشعر

فذكر أنه لا يستظل بظل الشعر؛ أى لا يتكسب به، وأنه لم يزده قدراً؛ لأنه كان نابه الذكر قبل عمل الشعر، ثم قال "ولا حط من قدرى" فأحسن الاعتذار لنفسه وللشعر، يقول الشعر ليس صنعة فى نفسه، "ولا صنعته فيمن دون

(١) حلوان من ثغور الكوفة بالعراق وهى: حلوان، والموصل، وماسبذان، وقرقيسيا، انظر الكامل لابن الأثير جـ٢/ ٥٢٥.

(٢) انظر: السابق ص (١١).

الخليفة"، وما كفاه ذلك، حتى جعل نفسه بإزاء الخليفة؛ بل مكافئاً له بشعره على إحسان بدأه الخليفة به، ولم يرض أن يجعل نفسه راغباً ولا مجتدياً"(١).

ومن المعروف أن الشاعر منذ العصر الجاهلى كان يرسم فى ممدوحه المثالية الخلقية الرفيعة التى تقدرها الجماعة، وإذا كان مؤثراً فى حياة عصره السياسية كأن يكون خليفة أو والياً عرض لأعماله، وللأحداث التى شارك فيها، أما إذا كان بطلاً يقود الجيوش ضد أعداء الأمة العربية؛ فإنه يصور بطولته وما خاضه من معارك حربية.

وفى العصر العباسى نجد الشعراء يعيدون ويبدئون فى تصوير المثل الخلقية صوراً حية ناطقة، وقد جسموها فى الممدوحين تجسيماً قوياً، حتى لتصبح كأنها تماثيل قائمة نصب أعينهم وأعين الناس كى يحتذوها ويحوزوا لأنفسهم مجامع الحمد والثناء.

وقد مضى الشعراء العباسيون فى مديح الخلفاء والولاة يضيفون إلى هذه المثالية مثالية الحكم وما ينبغى أن يقوم عليه من الأخذ بدستور الشريعة وتقوى الله والعدالة التى لا تصلح حياة الأمة بدونها، وبذلك كانوا صوتاً قوياً لها يهتف فى آذان الحكام بما ينبغى أن يكونوا عليه فى سلوكهم وسياستهم من مثل قول مروان بن أبى حفصة فى المهدى(٢):

أحيا أمير المؤمنين محمد سنن النبى: حرامها وحلالها

---

(١) انظر: الديوان ص (٣٨). والعمدة لابن رشيق جـ٢ ص (٢٠) تحقيق محمد محيى الدين دار الجيل، ط خامسة سنة ١٩٨١م.

(٢) انظر: ص (١٦٠) العصر العباسى الأول د. شوقى ضيف، دار المعارف ط تاسعة سنة ١٩٨٦م.

وقول "على بن الجهم" فى مدح "المتوكل":

عنايتـــه بالـــدين تـــشهد أنـــه بقوس رسول الله يرمـــى وينـــصل

وقوله:

أعاد لنـــا الإســـلام بعـــد دروســـه وقـــام بـــأمر الله والأمـــر مهمـــل
وآثـــر آثـــار النبـــى محمـــد فقـــال بمـــا قـــال الكتـــاب المنـــزل
وألـــف بـــين المـــسلمين بيمنـــه وأطفأ نيراناً علـــى الـــدين تـــشعل

ولا نغفل ما سجلته صحف المديح فى هذا العصر الذى نشأ وترعرع فيـــه "ابن الجهم" أدبياً صور الأبطال الذين كانوا يقودون جيوش الأمة المظفرة ضـــد أعدائها، ومن هؤلاء "آل مصعب" وهم بنو عبد الله ابن طاهر بن الحـــسين بـــن مصعب الخزاعى أمير خراسان وابنه طاهر ابن عبد الله ولى خراســـان بعـــده، وابنه عبيد الله بن عبد الله ولى شرطة بغداد؛ فقد مدحهم "ابن الجهم" طى قصيدة رثى بها "المتوكل" بعد مقتله، يقول:

ولـــو حـــضرته عـــصبة طاهريـــة مكرمـــــة آباؤهـــــا وجـــــدودها
لعز على أيـــدى المنـــون اخترامـــه وإن كان محتومـــاً عليـــه ورودهـــا
أولئـــك أركـــان الخلافـــة إنمـــا بهـــم ثبتـــت أطنابهـــا وعمودهـــا

ومما سجل من مديح فى ديوانه نجد ونعلم أنه لم يمدح إلا خليفة؛ فقد مدح "المعتصم"، ومدح "الواثق" ابنه من بعده، ومدح "المتوكل" أخاه من بعـــده حتـــى أصابته الفتنة التى حبس بسببها.

وكانت المدحة قديماً تشتمل على مقدمات تصف الأطلال وعهـــود الهـــوى بها، وما يلبث الشاعر أن يستطرد إلى وصف الصحراء ناعتاً ما يركبه من بعير

أو فرس وما يراه فيها من حيوان وحشى، وقد يعرض لوصف مشهد صيد، وكثيراً ما يضمنها بجانب ذلك حكماً توسع مدارك السامع وتبصره بأطراف من سنن الحياة، وكل ذلك استبقاه الشاعر العباسى؛ ولكن مع إضافات تعبر عن الذخائر العقلية والخيالية للشاعر العباسى، مثل قول مسلم بن الوليد:

هلا بكيت ظعائناً وحمولاً ... تركك الفؤاد فراقهم مخبولاً
فإذا زجرت القلب زاد وجيبه ... وإذا حبست الدمع زاد همولا[1]

ومنه قول "على بن الجهم" يمدح "المعتصم": (من الوافر):

متى عطلت رباك من الخيام ... سقيت معاهداً صوب الغمام
لأسرع ما أدالتك الليالى ... وأخلت عنك عائرة السوام
وقفت بها على حلل بوال ... تعفيها السوافى بالقتام
فقلت لفتية من آل بدر ... كرام والهوى داء الكرام
قفوا حيوا الديار فإن حقاً ... علينا أن نحيى بالسلام
حرام أن تخطاها المطايا ... ولم نذرف من الدمع السجام
فأسرع كل أروع من قريش ... نماه أب إلى العلياء نام
فظلنا ننشد العرصات عهداً ... تصرم والأمور إلى انصرام
ونستاف الثرى من بطن فلج ... ونستلم الحمى أى استلام
إلى أن غاضت العبرات إلا ... بقايا بين أجفان دوام
ورحنا تلزم الأيدى قلوباً ... دوين من الصبابة والغرام
هى الأيام تجمع بعد بعد ... وتفجع بعد قرب والتئام[2]

(١) انظر: السابق ذاته ص (١٦٣).
(٢) انظر: الديوان ص (٢٠٣).

وقد نعجب من استبقاء هؤلاء الشعراء المتحضرين لعناصر الأطلال ورحلة الصحراء البدوية، غير أنهم اتخذوها رمزاً؛ أما الأطلال فلحبهم الداثر، وأما رحلة الصحراء فلرحلة الإنسان فى الحياة، وقد استغلوا ما كان يصحب الأطلال من حنين لذكريات حبهم ومعاهده لا يزال يترقرق فى أشعارهم[١]. ونجد ذلك عند "على بن الجهم"؛ فقد انتقل من وصف الأطلال وتحيتها بالسلام والعبرات المذروفة والقلوب التى أثقلها الغرام وأتعبتها الصبابة إلى الغزل والحديث عن الهوى.

ثم ينتقل الشاعر إلى مدح الخليفة؛ فيقول:

إليك خليفة الله استقلت ... قلائص[٢] مثل مجفلة النعام
تراها كالسراة معممات ... إلى اللبات من جعد اللغام[٣]

تهاوى بين هدار نجى[٤] ... وقور الرحل طياش الذمام
وبين شملة[٥] تطغى إذا ما ... تهافتت المطى من السئام
جزعن قناطر القاطول[٦] ليلاً ... وأعراض المطيرة[٧] للمقام

فعجن بها وقد أنضى طلاها ... قران الليل بالليل التمام
وكن نواهض الأعناق غلباً ... فعدن وهن قضبان الثمام

---

(١) انظر: العصر العباسى الأول ص (١٦٣). مرجع سابق.
(٢) قلائص: جمع قلوص؛ الإبل الشابة.
(٣) اللغام: زبد أفواه الإبل.
(٤) النجى: البعير السريع.
(٥) ناقة شملة: أى سريعة.
(٦) القاطول: نهر عند سامراء مقطوع من دجله.
(٧) المطيرة: قرية من نواحى سامراء.

فـــشبهنا مواقعهـــا بعقـــد تـــساقط مـــن فريـــد أو نظـــام

وصف رحلته إلى "المعتصم" على الجمال والنوق تماماً كما كـان يـصنع الشاعر الجاهلى فقد عبرت به وبرفاقه القاطول فى الليل حتى قرية المطيرة مـن نواحى سامراء، وقد سارت سيراً طويلاً حتى وصلت إليك فمكنتنى من مدحك – على حد قوله –؛ ثم ينتقل من المقدمة إلى الغرض الرئيس محسناً التخلص فـى قوله:

وثـــرن وللـــصباح معقبـــات تقلـــص عنـــه أعجـــاز الظـــلام
فلمـــا أن تجلـــى قـــال صـــحبى: أضـــوء الـــصبح أم وجـــه الإمـــام
فقلـــت كأنـــه هـــو مـــن بعيـــد وجلـــت غـــرة الملـــك الهمـــام
إليـــك ابـــن الخلائـــف أزعجتنـــا دواعـــى الـــود والهمـــم الـــسوامى
وأنـــت خليفـــة الله المعلـــى علـــى الخلفـــاء بـــالنعم العظـــام
وليـــت فلـــم تـــدع للـــدين ثـــأراً ســـيوفك والمثقفـــة الـــدوامى
نـــصبت المازيـــار علـــى ســـحوق وبابـــك والنـــصارى فـــى نظـــام
منـــاظر لا يـــزال الـــدين منهـــا عزيـــز النـــصر ممنـــوع المـــرام
وقـــد كـــادت تزيـــغ قلـــوب قـــوم فـــأبرأت القلـــوب مـــن الـــسقام[1]

وصفه بأن الله فضله على الخلفاء بجمال الخلق كوضاءة الوجـه وبـالنعم العظام؛ فقد وفقه للأخذ بثأر الدين من أعدائه الذين أرادوا طمس معالمـه، فقـام بردهم بسيوفه ورماحه المشرعة إلى حظيرة الدين، ومن تجبر قصمه وقتله ثـم صلبه ليكون عبرة لمن يعتبر، ومن هؤلاء "مازيار بن قارن" الذى أظهر الخلاف على "المعتصم" بطبرستان وعصى وقاتل عساكره سنة ٢٢٤هـ، وظفر به جيش

(١) انظر: السابق ص (٢٠٣).

الخليفة وأتى به إلى "المعتصم" بسامراء فأمر بقتله وصلبه إلى جانب "بابك الخرمى"[١].

ولا ينسى "على بن الجهم" أن يذكرنا بفتح "المعتصم" لعمورية كما صنع كثير من الشعراء فيقول:

وعموريـــة ابتـــدرت إليهـــا بـــوادر مـــن عزيـــز ذى انتقـــام
فقعقعـــت الـــسرايا جانبيهـــا وألحفـــت الفـــوارس بالـــسهام
رأت علـــم الخلافـــة فـــى ذارهـــا فخـــرت بـــين أصـــداء وهـــام
وجمع الزط حين عمـــوا وصـــموا عـــن الـــداعى إلـــى دار الـــسلام
أطـــل علـــيهم يـــوم عبـــوس تعـــوذ منـــه أيـــام الحمـــام

مثال آخر يضاف إلى بطولات الخليفة يشدو به الشاعر ليسمع الخلق فى مشارق الأرض ومغاربها كيف لبى "المعتصم" نداء المرأة الهاشمية المسلمة التى صاحت وهى أسيرة فى أيدى الروم: "وامعتصماه" فقال: لبيك وسار إلى أحصن وأمنع بلاد الروم بجيوشه وسراياه ففتحها ورفرف عليها علم الخلافة الإسلامية، وفى ذات الوقت تخرج جماعة "الزط" الذين بلغ عددهم ثلاثين ألفاً وكان رئيسهم "محمد ابن عثمان" وتقطع طريق البصرة وأخذوا الغلات وأخافوا السبيل وعاثوا فوجه إليهم "المعتصم" لحربهم "عجيف بن عنسبة" سنة ٢١٩هـ فظفر بهم ونقلهم جميعاً إلى عين زربة[٢]. وهنا يوجه التحية والتهنئة لهذا الخليفة الشجاع الذى استحق بما صنع للإسلام من أمجاد حتى استقرت الأمور فى عهده واستحق أن يكون خليفة المسلمين، ثم يطلب إليه أخذ العهد لهذا الشبل الذى سيكون حقاً من

(١) انظر: الديوان ص (٢٠٨).
(٢) انظر: السابق ص (٢٠٩).

أبيه الأسد كما يقولون "الواثق" واسمه هارون وكنيته أبو إسحاق؛ فإمام المسلمين هو من يغضب لدين الله، ويعمل على استقرار الأمة ويدافع عن أوطانها؛ يقول:

ليهنك يا أبا إسحق ملك ... يجل عن المفاخر والمسامى
لسيفك دانت الدنيا وشدت ... عرى الإسلام من بعد انفصام
فأيدنا بهرون وإنا ... لنرجو أن تعمر ألف عام

أما ومحرم البلد الحرام ... يميناً بين زمزم والمقام
لأنتم يا بنى العباس أولى ... بميراث النبى من الأنام
تجادل سورة الأنفال[1] عنكم ... وفيها مقنع لذوى الخصام
وآثار النبى وسندات ... صوادع بالحلال وبالحرام
مودتكم تمحص كل ذنب ... وتقرن بالصلاة وبالصيام
ورافضة تقول بشعب رضوى ... إمام خاب ذلك من إمام
إمامى من له سبعون ألفاً ... من الأتراك مشرعة السهام
إذا غضبوا لدين الله أرضوا ... مضارب كل هندى حسام[2]

وفى خلافة "الواثق" نجد أن "على بن الجهم" يحضر مجالسه ثم لما بويع "الواثق" بالخلافة نجده يقول:

قد فاز ذو الدنيا وذو الدين ... بدولة "الواثق" هرون
أفاض من عدل ومن نائل ... ما أحسن الدنيا مع الدين

(١) آية رقم (٧٥) سورة الأنفال ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُو الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

(٢) انظر: الديوان ص (٢٠٩- ٢١١).

وعـــم بالإحـــسان مـــن فعلـــه فالناس فـــى خفـــض وفـــى لـــين
مـــا أكثـــر الـــداعى لـــه بالبقـــا وأكثـــــر التـــــالى بـــــآمين[1]

هنأه بالخلافة لما آلت إليه بعد أبيه "المعتصم"، ومدحه بصفات منها العـدل والكرم فعدله استقرت به البلاد وكرمه عم رعيته؛ فاجتمعت لهم الدنيا مع الـدين فاستحق أن يدعو له الناس بطول العمر ويؤمنوا على ذلك موقنين بالإجابة.

ومما مدحه به أيضاً قوله :

وثقـــــت بالملـــــك الـــــوا ثـــــق بـــــالله النفـــــوس
ملـــك يـــشقى بـــه المـــا ل ولا يـــــشقى الجلـــــيس
ملـــك تفـــزع مـــن صـــو لتـــه الحـــرب الـــضروس
أنـــس الـــسيف بـــه واستـــ ـــوحش العلـــق النفـــيس
يـــابنى العبـــاس يـــأبى اللـــ ـــه إلا أن تـــسوسوا
لكـــم الملـــك علينـــا آخـــر الـــدهر حبـــيس[2]

مدحه هنا أيضاً بالكرم والشجاعة حتى وثقت به النفوس وتعلقت به؛ فهـو من سلالة هؤلاء القوم الكرام الشجعان بنى العباس الذين هم أحق الناس بالخلافة وسياسة المسلمين، ويأبى الله أن يحكم غيرهم فالملك لهم طول الدهر لا لغيرهم.

ومن مدحه "الواثق" أيضاً قوله:

لـــو تنـــصلت إلينـــا لغفرنـــا لـــك ذنبـــك
ليتنـــى أملـــك قلبـــى مثـــل مـــا تملـــك قلبـــك
ســـيدى مـــا أبغـــض العيـــ ـــش إذا فارقـــت قربـــك

---

(١) انظر: الديوان ص (٢٢١).

(٢) انظر: الديوان (ص (١٥٠)، الأغانى جـ١١١/١٢ دار الكتب المصرية سنة ١٩٢٦م.

أيهـــا "الواثـــق" باللـــــــــــــــــه لقـــد ناصـــحت ربـــك
مـــــا رأى النـــــاس إمامـــــاً أنهـــب الأمـــوال نهبـــك
أصـــبحت حجتـــك العلـــــــــيا وحـــزب الله حزبـــك

مدحه بالكرم متمنياً أن يكون مثله كريماً، وأن يبقى بجواره دائمـاً؛ يـرى عطفه وكرمه؛ فما رأى الناس خليفة أكرم منه عطاء حتى أصـبح ذلـك سـمة مميزة له وعلامة يعرف بها وصار حزب الله حزبه، وهذه الأبيات وردت فـى الأغانى، وهى مما يتغنى به(١).

وهى كلها مما يشبه الأناشيد قليلة عدد الأبيات قصيرة الأوزان لا تدل فـى معظمها على ارتياح وانشراح صدر، ولعل مرد ذلك لشدة "الواثق" علـى أهـل الحديث، وفى هذه المدة أعلن "على بن الجهم" كرهه لوزير "الواثق" "محمد بـن عبد الملك الزيات"؛ فهجاه أقبح هجاء، ولم يخش صولته ولا جبروته(٢).

وهنا نصل إلى خلافة "المتوكل"؛ فنجد "على بن الجهم" يلتقى بخليفة أظهـر خصائصه الوداعة والكرم، يرى رأى أهل السنة وأصحاب الحـديث، ويرتـاح للشعراء ويؤثر مجالسة الأدباء، وهذا غاية ما يتمناه؛ وفى ذلك يقول:

(من السريع)

قـــالوا أتـــاك الأمـــل الأكبـــر وفـــاز بالملـــك الفتـــى الأزهـــر

---

(١) قال صاحب الأغانى: "لما بويع "الواثق" بالخلافة سنة ٢٢٧هـ دخل عليه "علـى بـن الجهم" فأنشده قوله:

قد فاز ذو الدنيا وذو الدين بدولة "الواثق" هـــرون

وأنشده أيضاً: وثقت بالملك "الواثق".. فوصله "الواثق" صلة سنية، وغنى المغنون بهذين الشعرين.

(٢) انظر: الديوان ص (١٢).

واكتست الدنيا جمالاً به ... فقلت قد قام إذاً "جعفر"
ذاك الذى كانت إلى ملكه ... أبصارنا طامحة تنظر
الآن فليهن لذيذ الكرى ... من كان تأميلاً له يسهر
يا وارث الأرض التى أصبحت ... أقطارها من نوره تزهر
قد كان مشتاقاً إلى خطبة ... منك سرير الملك والمنبر
فأصبحا قد ظفرا بالتى ... ما مثلها غنم لمن يظفر
يا شهر ذى الحجة قد أصبحت ... تشبهك الأيام والأشهر
ما مثل نعماك علينا به ... إلا الذى كان ولا يذكر
لا زلت للناس حديثاً بما ... أسدته أيامك ما عمروا[1]

مدح "المتوكل" بما رآه فيه من وسامة وما لمسه فيه من كرم أخلاق وفصاحة بيان، وربط فوز "المتوكل" بالخلافة بالزمن الذى بويع له فيه وهو شهر ذو الحجة، شهر عيد الأضحى؛ فقد صارت الأيام والشهور كلها أعياداً فى عهد "المتوكل" وهى أيضاً موصوفة بالرخاء واليسر كما ذكر المسعودى فى مروج الذهب[2].

ومن أول شعر "على بن الجهم" فى "المتوكل" بعد البيعة بالخلافة قوله[3]:

(من السريع)

وقائل أيهما أنور ... الشمس أم سيدنا جعفر
قلت لقد أكبرت شمس الضحى ... جهلاً وما أنصفت من تذكر

(١) انظر: السابق ص (١٢٦).
(٢) انظر: السابق ص (٢٦).
(٣) انظر: السابق ص (١٢٧).

هـــل بقيـــت فيـــك مجوســـية فالـــشمس فـــى ملتهـــا تكبـــر
أم أنـــت مـــن أبنائهـــا عـــالم وزلـــــة العـــــالم لا تغفـــــر
فقـــل معـــاذ الله مـــن هفـــوة قـــال فهـــل يغلـــط مـــستخبر

رد على من يسوى بين الخليفة نور الله فى أرضه وبين شمس الضحى ليدله على مدى جهله بمنزلة الخليفة؛ فهو بين حالين؛ إما إنه عابد للشمس فيه مجوسية، أو أخطأ فى هذا، فما عليه إلا أن يعود مستغفراً من زلته، وحتى تزول حيرة صديقه وضح له خطأه قائلاً:

الـــشمس يـــوم الـــدجن محجوبـــة والليـــل يخفيهـــا فـــلا تظهـــر
فهـــى علـــى الحـــالين مملوكـــة لا تـــــدفع الـــــرق ولا تنكـــــر
فكيـــف قايـــست بهـــا غـــرة غـــراء لا تخفـــى ولا تـــستر
فـــى كـــل وقـــت نورهـــا ســـاطع وكـــل وصـــف دونهـــا يقـــصر

بين له بالدليل الحسى المرئى الفرق بين حال الشمس التى يحجبها الغيم ويخفيها الليل وبين نور الخليفة الذى لا يحجب، والشمس بهذا مملوكة والخليفة يملك الرعية ولا يملكه أحد.

يعود صديقه متسائلاً؛ يقول(١):

قـــال وأيـــن البحـــر مـــن جـــوده قلـــــت: ولا أضـــــعافه أبحـــــر
البحـــر محـــصور لـــه بـــرزخ والجـــود فـــى كفيـــه لا يحـــصر
قال وكيف البـــأس عنـــد الـــوغى: قلـــــت: أتـــــاك النبـــــأ الأكبـــــر
قـــام وأهـــل الأرض فـــى رجفـــة يخـــبط فيهـــا المقبـــل المـــدبر
فـــى فتنـــة عميـــاء لا نارهـــا تخبـــــو ولا موقـــــدها يفتـــــر

(١) انظر: الديوان ص (١٢٧).

والـــدين قـــد أشـــفى وأنـــصاره ... أيـــدى ســـبا موعـــدها المحـــشر
كـــل حنيـــف مـــنهم مـــسلم ... للكفـــر فيـــه منظـــر منكـــر
إمـــا قتيـــل أو أســـير فـــلا ... يرثـــى لمـــن يقتـــل أو يؤســـر
فـــأمر الله إمـــام الهـــدى ... والله مـــن ينـــصره ينـــصر
وفـــوض الأمـــر إلـــى ربـــه ... مستنـــصراً إذ لـــيس مستنـــصر
ونبـــذ الـــشورى إلـــى أهلهـــا ... لـــم يثنـــه خـــشية مـــا حـــذروا
وقـــد جـــرد الحـــق فأشـــجى بـــه ... مـــن كـــان عـــن أحكامـــه ينفـــر
وانفـــضت الأعـــداء مـــن حولـــه ... كحمـــــر أنفرهـــــا قـــــسور

فى هذه الأبيات قص علينا وعلى من سأله عن شجاعة الخليفة ما كان؛ فقد عمت الفتنة أرض المسلمين عندما كثر الملاحدة والزنادقة والرافضة والنصارى أيام "الواثق"، وظهرت أيضاً فتنة خلق القرآن وقتل كثير من الـذين ردوا علـى ذلك، فما كان من "المتوكل" إلا أن قام بإخماد نارها بقوة إيمانه ويقينـه وتوكلـه على الله؛ فأطلق أسرى المسلمين، وأخذ بثأر قتلاهم؛ فلله وحده الـشكر العمـيم، وهذا كله يدل على شجاعته فى الحق؛ فبها حقق ما يريد.

ثم يسوق الشاعر ما حل بإبليس وأصحابه بعد ما صنع الخليفة؛ فيقول:

وصـــاح إبلـــيس بأصـــحابه ... حـــل بنـــا مـــا لـــم نـــزل نحـــذر
مـــالى وللغـــر مـــن بنـــى هاشـــم ... فـــى كـــل دهـــر مـــنهم منـــذر
أكلمـــا قلـــت خبـــا كوكـــب ... مـــنهم بـــدا لـــى كوكـــب يزهـــر
لـــم يلهـــه عنـــى الـــشباب الـــذى ... يلهـــى ولا الـــدنيا التـــى تعمـــر
والله لـــو أمهلنـــا ســـاعة ... مـــا قلـــل النـــاس ولا كبـــروا
ألـــيس قـــد كـــانوا أجـــابوا إلـــى ... أن أظهروا الشرك كمـا أضـمروا
وأظهـــروا أنهـــم قـــدر ... قـــدرة مـــن يقـــضى ومـــن يقـــدر

وشـــتموا القـــوم الـــذين ارتـــضى بهـــم رســـول الله واســـتكبروا
فـــردهم طوعـــاً وكرهـــاً إلـــى أن عرفـــوا الحـــق الـــذى أنكـــروا
ووافقـــوا مـــن بعـــد مـــا فـــارقوا وأقبلـــوا مـــن بعـــد مـــا أدبـــروا

هذا حديث إبليس ساقه الشاعر ليقنع صديقه بشجاعة الخليفة، ومدى حسرة إبليس وأصحابه بسبب ما وقع عليهم كالصاعقة بعد أن رد الخليفة النـــاس إلـــى الطريق الصحيح والسبيل الهادية بعد أن عاشوا فى الفتنة فاكتووا بنارها زمنـــاً، ولو لم يفعل لظل الناس فى ضلال مبين كما يريد إبليس اللعين(١).

وهنا يتوجه بالتحية والتهنئة لمن يستحقها وهو الخليفة مثنياً عليه بما صنع وذلك بعقد شبه قوى وترابط تام بين صنيعه وصنيع الخليفـــة الأول أبـــى بكـــر الصديق (ﷺ) عندما أعاد المرتدين إلى حظيرة الدين وقد منعوا الزكاة يريـــدون إبطال ركن من أركان الإسلام وهم لم يكفروا؛ فيقول:

يـــا أعظـــم النـــاس علـــى مـــسلم حقـــاً ويـــا أشـــرف مـــن يفخـــر
الـــردة الأولـــى ثنـــى أهلهـــا حـــزم أبـــى بكـــر ولـــم يكفـــروا
وهـــذه أنـــت تلافيتهـــا فعـــاد مـــا قـــد كـــاد لا يـــذكر
فاســـلم لنـــا يـــا خيـــر مـــستخلف مـــن معـــشر مـــا مـــثلهم معـــشر
واســـمع إلـــى غـــراء ســـنية يـــسطع منهـــا المـــسك والعنبـــر
موقعهـــا مـــن كـــل ذى بدعـــة موقـــع وســـم النـــار أو أكثـــر

(١) قال المرزبانى فى الموشح ص٣٤٥: "لما أنشد "على بن الجهم" "المتوكل" قصيدته التى مدحه فيها بقوله: وصاح إبليس بأصحابه.... عظم ذلك علـــى أحمـــد بـــن أبـــى دؤاد فأطرق، فقال ابن الجهم: يا أبا عبد الله ما سمعت مديحاً للخلفاء مثل هذا؟ قـــال لا ولا غيرى ولا توهمت أن أحداً يجتـــرئ علـــى مثلـــه". الـــديوان ص (١٣٠) والموشـــح للمرزبانى دار التاليف والترجمة والنشر سنة ١٩٤٧م.

دعا له بالسلامة وطول العمر؛ فهو خير خليفة لأنه من أشرف الناس، عرفوا الحق حق معرفته، وأقاموا العدل فى كل مكان؛ فهم أقدر من غيرهم على سياسة المسلمين، وهذه التحية من خلال قصيدة غراء سنية حملت مدح خير المستخلفين وكانت فى ذات الوقت ناراً على صاحب كل بدعة يرفض ذلك.

ومن قصائده فى مدح "المتوكل"، والتى بدأها ابن الجهم بمقدمة زهدية قصيدة: (هى النفس ما حملتها تتحمل)؛ وفيها يقول[1]:

(من الطويل)

هى النفس ما حملتها تتحمل ... وللدهر أيام تجور وتعدل
وعاقبة الصبر الجميل جميلة ... وأفضل أخلاق الرجال التفضل
ولا عار أن زالت عن الحر نعمة ... ولكن عارا أن يزول التجمل

وبعد هذه المقدمة يتخلص إلى المدح وكأنه يريد أن يضرب لنا مثلاً تطبيقياً وعملياً على من تنطبق عليه وتجتمع فيه كل هذه الخصال؛ إنه جعفر "المتوكل"؛ يقول الشاعر:

وأقوم خلق الله لله بالذى ... يحب ويرضى "جعفر "المتوكل""
فتى جمعت فيه المكارم شملها ... فما فاته منها أخير وأول
أبى الله إلا أنه خير خلقه ... وأعدلهم فيما يقول ويفعل

يقول:

أعاد لنا الإسلام بعد دروسه ... وقام بأمر الله والأمر مهمل
وآثر آثار النبى محمد ... فقال بما قال الكتاب المنزل

(١) انظر: الديوان ص (١٧٢).

وألـــف بـــين المـــسلمين بيمنـــه وأطفأ نيراناً علـــى الـــدين تـــشعل
يعاقـــب تأديبـــاً ويعفـــو تطـــولا ويجزى على الحسنى ويعطى فيجزل
ولا يتبـــع المعـــروف منـــاً ولا أذى ولا البخل من عاداته حـــين يـــسأل

ثم يضيف إلى كل ما سبق ما يدل على نفاذ بصيرته؛ فهو يرشـــد ويهـــدى رفاقه إلى خير الآراء وأحكمها، ولا عجب فى هذا فهو معتصمى الخلق لـــسيفه وقناته رونق، وعليه بهاء حين يروح ويجىء، وهو الشجاع الذى يحمـــى حمـــاه ويصون أمته، وهو الكريم الذى يعم نداه كل الناس؛ يقول:

ومعتصمى الخلق للـــسيف والقنـــا عليه بهـــاء حـــين يبـــدو ويقبـــل
إذا نحن شـــبهناك بالبـــدر طالعـــاً بخسناك حظا أنـــت أبهـــى وأجمـــل
ونظلم إن قسناك بالليث فى الـــوغى فإنـــك أحمـــى للـــذمار وأبـــسل
ولست ببحر أنـــت أعـــذب مـــوردا وأنفـــع للراجـــى نـــداك وأشـــمل
ولا وصف إلا قـــد تجـــاوزت حـــده ولا سيب إلا ســـيب كفـــك أفـــضل
رعاك الذى استرعاك أمـــر عبـــاده وكافـــاك عنـــا المـــنعم المتفـــضل

إنه أجمل من البدر حسناً وبهاءً، وأكرم من البحر مدداً وعطاءً، ثـــم هـــو أشجع من الأسد، وأحمى للذمار؛ ولذا استحق أن يدعو لـــه بالرعايـــة والحفـــظ والجزاء الحسن جزاء ما صنع لأمته.

وقد أكثر الشاعر "على بن الجهم" من مدح "المتوكل" فى المدة التى قربـــه فيها منه، واتخذه جليساً ونديماً، وكان يرسله فى حاجاته، ويفضى إليه بأســـراره ويثق به، ويأنس بمجالسته منفرداً ومع الندماء، ويطلعه على أموره الخاصة بينه وبين حظياته وجواريه، ويدعوه نهاراً كما يدعوه ليلاً، وقد يأمر بإيقاظـــه مـــن نومه ليبوح إليه بشىء من ذات نفسه.

وكان "على بن الجهم" يتعالى على ندماء "المتوكل" ويراهم دونه، فاتفقوا عليه وهجاه من شعرائهم "البحترى"، و"مروان بن أبى الجنوب"، وكادوا له وسعوا به لدى "المتوكل"، وزعموا أنه يجمش خدم القصر ويغمزهم، فتغير قلب "المتوكل" عليه بعد أن كان مستودع سره نحواً من سبع سنين، وأمره أن يلزم داره، ففعل وانقطع.

ولكن الندماء لم يقفوا عند هذا الحد، فزعموا أنه كثير الطعن على الخليفة والعيب له والإزراء على أخلاقه، فغضب "المتوكل" وأمر بحبسه، فكان أول ما قال فى الحبس قصيدة كتب بها إلى أخيه ليوصلها إلى الخليفة أولها[1]:

توكلنا على رب السماء وسلمنا لأسباب القضاء

ويظهر فيها تجلداً ويهجو خصومه، ويعلن استمرار إخلاصه للخليفة؛ يقول:

أنا المتوكلى هوى ورأياً وما بالواثقية من خفاء
وما حبس الخليفة لى بعار وليس بمؤيسى منه التنائى

فرق له "المتوكل" وكاد يأمر بإطلاقه، ولكن الندماء تألبوا عليه وانتدب له "مروان بن أبى الجنوب" فعارضه بقصيدة يرد بها عليه وأنشدها فى مجلس "المتوكل"، فاعتورته ألسنة الجلساء وثلبوه واغتابوه وضربوا عليه، فتركه فى محبسه، وما زالوا يسعون به حتى أمر الخليفة أن يقيد فى حبسه، وفى ذلك يقول[2]: (من الطويل)

(١) انظر: الديوان ص: ١٣، ١٤.
(٢) انظر: الديوان ص: ١٤.

فلا تجزعــى إمــا رأيــت قيــوده فــإن خلاخيــل الرجــال قيودهــا

وله فى الحبس قصائد عدة أحسنها قصيدته البارعة التى لــم يقــل مثلهــا، وأولها:

قالت حبست فقلــت لــيس بــضائر حبــــسى وأى مهنـــد لا يغمـــد

وفى كل ما قال لم يظهر جزعاً ولا هلعاً، ولم يتغير إخلاصه للخليفة، ولــم يكف عن هجاء خصومه ومقارعتهم.

ولنا وقفة مع هجائه سنعرض لها بعد.

ولم يشتف خصومه بكل ما ناله من أذى فأبلغوا "المتوكل" عنه أنــه هجــاه فأمر بمصادرة أمواله ونفيه إلى خراسان بعد أن لبث فى السجن سنة، وكتب إلى أمير خراسان "طاهر بن عبد الله" بأن يصلبه يوماً إلى الليل ثم يحبسه وكان ذلك سنة ٢٣٩هـ فلما وصل إلى الشاذياخ وهى من ضواحى نيسابور حبسه "طاهر" بها ثم أخرج فصلب يوماً إلى الليل مجرداً من ثيابه ثم أنزل إلى الحــبس؛ فقــال فى ذلك :

لم ينصبوا بالشاذياخ[1] صــبيحة الإ ثنـــين مغمـــوراً ولا مجهـــولاً

وفيها يشير إلى مصادرة أمواله وما ناله من الظلم والعسف، دون أن يظهر عليه شىء من الخور[2]". ثم لبث فى السجن إلى أن كتب "المتوكل" إلى "طــاهر" بإطلاقه، فلما أطلقه قال:

أطاهر إنى عــن خراســان راحــل ومستخبر عنهــا فمــا أنــا قائــل

(١) الشاذياخ: من ضواحى نيسابور أم بلاد خراسان.

(٢) انظر: الديوان ص (١٥، ١٦).

فقال له طاهر: لا تقل إلا خيراً، فإنى لا أفعل بك إلا خيراً ووصله وحمله وكساه"[1].

عاد "على بن الجهم" إلى بغداد، ولم يذهب إلى سامراء حيث "المتوكل"، ولم يمدحه بشيء حتى قتل "المتوكل" فرثاه بقصيدة طويلة؛ وفيها يقول:

وسارية ترتاد أرضاً تجودها شغلت بها عيناً قليلاً هجودها

وسنعرض لها فى رثائه بعد.

ويتميز شعر "على بن الجهم" فى هذا الغرض بأنه جزل رصين؛ فيه إحكام ودقة، يظهر فيه ما يدل على ما خص به الممدوح من مزايا وفضائل، وليس من ذلك النوع الذى يصلح أن يمدح به كل إنسان؛ فقصيدة قالها فى "المعتصم" لا يمكن أن تقال فى غيره، وقصيدة قالها فى "المتوكل" كذلك، وهذه من مزايا الشاعر الذى يضع الأشياء فى مواضعها، ويعنى ما يقول، ولا يرسل الكلام جزافاً. وصفات مدحه قد تكون خاصة بالممدوح، ومنها ينتقل إلى الصفات العامة ثم يركز ويؤكد عليها؛ فهى القصد من الشعر والمقصودة من الشاعر؛ فقصيدة فتح عمورية يعبر فيها عن تقدير الأمة لبطولة "المعتصم" والقضاء على "بابك الخرمى" الذى حارب الدولة أكثر من عشرين سنة، وغيره من الخارجين على الخلافة".

ولم يقل فى "الواثق" إلا أبياتاً هى أشبه بالأناشيد وزناً ومعنى؛ فلم يجد فيه ما وجده فى "المعتصم" حتى يمدحه به؛ فكان تركيزه فى مديحه على صفات خاصة جداً عرضنا لها فى محلها من الدراسة".

---

(١) انظر: الديوان ص (١٦).

فلما جاء "المتوكل" بعد "الواثق" وكان متفقاً معه فى الرأى والمذهب أكثر من مدحه وتفنن؛ قال قصيدة بعد بيعته بالخلافة شرح فيها خطة سير الخليفة فى الحكم وسياسة الأمة، وحمل فيها على المعتزلة وغلاة الشيعة، وهكذا بقية قصائده فيه، لكل قصيدة صورة خاصة تنوه بخصائص الخليفة، وتترجم عن معان وحوادث تتصل برأى الشاعر ومذهبه، كما تتصل بفنه وشاعريته، وهذا من إصابة الوجه فى مدح الخفاء مثله فى مدح الملوك كما قال قدامة بن جعفر: فمثل قول النابغة الذبيانى فى مدح النعمان ابن المنذر:

ألم تر أن الله أعطاك سورة ترى كل ملك دونها يتذبذب
كأنك شمس والملوك كواكب إذا طلعت لم يبد منهن كوكب

ومثل ذلك قول نصيب فى سليمان بن عبد الملك:

أقول لركب قافلين لقيتهم قفاذات أو شال ومولاك قارب[1]

ومثل قول "على بن الجهم" فى "المعتصم":

وأنت خليفة الله المعلى على الخلفاء بالنعم العظام
وليت فلم تدع للدين ثأراً سيوفك والمثقفة الدوامى

وقوله:

وعمورية ابتدرت إليها بوادر من عزيز ذى انتقام
فقعقعت السرايا جانبيها وألحفت الفوارس بالسهام
رأت علم الخلافة فى ذراها فخرت بين أصداء وهام

(١) انظر: ص (١٠٧) نقد الشعر لأبى الفرج قدامة بن جعفر، تحقيق وتعليق د. محمد عبد المنعم خفاجى، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، دون تاريخ.

وقوله:

ليهنك يا أبا إسحاق ملك يجل عن المفاخر والمسامى
لسيفك دانت الدنيا وشدت عرى الإسلام من بعد انفصام

وقوله:

إمامى من له سبعون ألفاً من الأتراك مشرعة السهام
إذا ما غضبوا لدين الله أرضوا مضارب كل هندى حسام

فكل الصفات المذكورة صفات عامة تهم الخلافة والمسلمين وتسطر شجاعة "المعتصم".

وقوله فى "المتوكل":

أحسن خلق الله وجهاً إذا بدا عليه حلة تزهر
وأخطب الناس على منبر يختال فى وطأته المنبر
وتطرب الخيل إذا ما علا متونها فالخيل تستبشر
وترجف الأرض بأعدائه إذا علاه الدرع والمغفر

وقوله:

يا أعظم الناس على مسلم حقاً ويا أشرف من يفخر
الردة الأولى ثنى عزمها حزم أبى بكر ولم يكفروا
وهذه أنت تلافيتها فعاد ما قد كاد لا يذكر
فاسلم لنا ياخير مستخلف من معشر ما مثلهم معشر

فالمتوكل عندما يمتطى الخيل تطرب له وتستبشر لعلمها بأنه يريد بذلك جهاداً فى سبيل الله، والأرض تميد بأعدائه وترجف إذا تدرع الدرع وارتدى

المغفر، وهو الذى أخمد نار فتنة كانت قبله فأعاد الأمور إلى نصابها عوداً حميداً بعد أن جرد الحق ونادى به، فصار الكل تحت لوائه جسداً واحداً وأمة واحدة، وما أشبه صنيعه هذا بصنيع الخليفة الأول أبى بكر الصديق (رضي الله عنه)؛ فقد أخمد نار الردة الأولى فأعاد الأمور إلى نصابها وعاد مانعو الزكاة إلى حظيرة الدين وكنف الإسلام. وكل ما ذكر من صفات للمتوكل هى صفات الخليفة إمام المسلمين لها تأثير عام فى سير الخلافة ونظام الحكم، وما يفترض أن يكون عليه الخليفة، وبالتالى فهى تنطرح على الوزراء والقادة؛ فهم عمد الخلافة وعليهم تقوم وتبقى، وهذا ما عناه "قدامة بن جعفر" عند ذكره إصابة الوجه فى مدح القادة يقول: "وأما مدح القادة فى ما يجالس البأس والنجدة، ويدخل فى باب شدة البطش والبسالة فإن أضيف على ذلك المدح الجود والسماحة والتخرق فى البذل والعطية كان المديح حسناً والنعت تاماً، وإذا كان السخاء أخا الشجاعة وكان فى أكثر الأمور موجودين فى بعداء الهمم، وأهل الإقدام والصولة؛ كما قال منصور النمرى فى إفراده ذكر البأس وحده:

ترى الخيل يوم الحرب يظمأن تحته وتروى القنا فى كفه والمناصل
حلال لاطراد الأسنة نحرها حرام عليها متنها والكواهل[1]

ولما افتتحت أرمينية وقتل إسحق بن إسماعيل دخل "على بن الجهم" على "المتوكل" فأنشده قصيدته التى يهنئه فيها بالفتح ويمدحه؛ فقال وأومأ بيده إلى الرسول الوارد بالفتح وبرأس إسحق بن إسماعيل.

(من الرجز)

أهلاً وسهلاً بك من رسول جئت بما يشفى من الغليل

(١) انظر: نقد الشعر لأبى الفرج قدامة بن جعفر ص (١٠٩).

بجملـــة تغنـــى عـــن التفـــصيل بـــرأس إســـحق بـــن إســـماعيل

قهراً بلا ختل ولا تطويل

فاستحسن الجميع ارتجاله هذا وابتداءه، وأمر له "المتوكل" بثلاثـين ألـف درهم، وتمم القصيدة التى بلغت أبياتها سبعة عشر بيتاً[١].

٢- الهجاء:

ظل المديح حتى العصر العباسى متصلاً بالعلية من القوم خلفـاء ووزراء وقادة؛ أما الهجاء فهو أوسع دائرة من المديح؛ "بسبب اتـصاله بحيـاة الـشعب والعامة اتصالاً وثيقاً لعله أدق من اتصال المديح، وهى حياة لـم يعـد أساسـها العصبيات كما كان الشأن فى العصر الأموى، ومن أجـل ذلـك ضـعف فـن النقائض لقيامه عليها إلا أسراباً قليلة كانت تظهر من حين إلى حين. ولكـن إذا كان هذا الفن ضعف؛ فإن الهجاء لم يضعف بسبب التنافس الشديد بين الشعراء، وقد عمت فيه روح جديدة، إذ أخذوا يريشونه سهاماً مصمية، ويخيل إلى الإنسان أن أصحابه لم يتركوا مثلبة خلقية أو نفسية فى شخص إلا صـوروها، وكأنمـا يريدون أن يطهروا المجتمع منها، ولم يتورعوا أحيانـاً عـن هجـاء الخلفـاء والوزراء، كلما رأوهم ينحرفون عن الجادة على نحو ما هو مشهور عن دعبل. وبذلك يصبح الهجاء الصحيفة التربوية للمديح؛ فالمديح يرسم المثاليـة الخلقيـة لهذه التربية، والهجاء يرسم المساوئ الفردية والاجتماعية التى ينبغى أن يتخلص منها المجتمع الرشيد"[٢].

---

(١) انظر الديوان ص (١٩٢).

(٢) انظر: العصر العباسى الأول ص (١٦٧) مرجع سابق.

كان "على بن الجهم" ميالاً إلى التحرش برجال الدولة والتمرس بهم، خاصم الوزير الجبار "محمد بن عبد الملك الزيات" وهو فى عنفوان عزه وجبروته وهجاه، كما هجا "أبا أحمد بن الرشيد" وغيرهما من العظماء، ولم يكد يسلم من لسانه أحد من ندماء "المتوكل"، مع ترفع عن منازلة غير الأكفاء"(١).

قال المسعودى فى مروج الذهب عن "على بن الجهم": ".... وكان فى لسانه فضل قل من يسلم معه منه"(٢)، وهو فى هجائه خصم لدود عالم بالمقاتل، لا يتورع عن هتك الأعراض وانتهاك الحرم بالجد والسخرية، وتنتابه فى هجائه حمية جاهلية تطغى على ما طالما تمدح به من التدين والأخذ بآداب السنة، ولم يهج إلا الأمراء والوزراء والقضاة وكبار رجال الدولة وحاشية الخلفاء وأسبابهم؛ أما الشعراء فكأنه لم يرهم أكفاء له، فلم يهجهم ولو تعرضوا إليه، هجاه "البحترى" ثلاث مرات فلم يجبه، وهجاه "مروان بن أبى الجنوب"، بحضرة "المتوكل" فى مجلس من مجالس سمره؛ فقال:

لعمرك ما الجهم بن بدر بشاعر وهذا على بعده يدعى الشعرا
ولكن أبى كان جاراً لأمه فلما ادعى الأشعار أوهمنى أمرا

فأعرض عنه احتقاراً، فقال له "المتوكل": أجبه، قال: لقد كظنى النبيذ يا أمير المؤمنين، قال هذا عى ولابد من إجابته، فأطرق ساعة ثم قال على بالدواة فأتى بها وكتب:

---

(١) انظر: الديوان ص (٢٦).

(٢) انظر: مروج الذهب للمسعودى جـ٢ /٢٧٥ تحقيق يوسف أحمد داغر، نشر دار الأندلس، بيروت سنة ١٩٧٣م.

بـــلاء لـــيس يـــشبهه بـــلاء عداوة غيـــر ذى حـــسب وديـــن[1]
يبيحك منـــه عرضـــاً لـــم يـــصنه ويرتع منك فـــى عـــرض مـــصون

ورد هجاء "على بن الجهم" فى قصائد أخلصها لهذا الغرض، أوطى قصائد مديح، ونجده لم يهج خليفة ولم يذمه؛ فقد كان يرى فيه إمام المسلمين وأســوتهم وقدوتهم الطيبة، وقد خص الخلفاء بالمديح وخص المديح بالخلفاء؛ فكيف يتــأتى له أن يمدح خليفة اليوم ثم يهجوه غداً، أو أن يمدح خليفة ويهجو خليفة آخر؛ لقد صب هجاءه على من اتصل بالخلفاء من وزراء وقادة ونــدماء وقــد انحــرف سلوكهم فلم ينصحوا للخلفاء أو استعبدوا الرعية أو غيروا وبدلوا فــى القــوانين والأعراف كما يحلو لهم دون رقيب من ضمير أو وازع من دين، وهو فى هــذا يريد تقويم سلوكهم المعوج، فمن استجاب فهو خير له، ومن لم يستجب فقد شهر به فى شعر يرويه الناس وتسير به الركبان ليكون عبرة لغيره.

وممن هجاهم ابن الجهم "أحمد بن أبى دؤاد" قاضى القضاة، وكان منحرفــاً عن "على بن الجهم"؛ لاعتقاده مذهب الحشوية، فلما حبس "على بن الجهم" ســأل ابن أبى دؤاد أن يشفع فيه فلم يفعل، فلما سخط "المتوكل" على "ابــن أبــى دؤاد" وكفأه شمت به "على بن الجهم" وهجاه؛ فقال فيه[2]: (من الكامل)

يــا أحمــد بــن أبــى دؤاد دعــوة بعثــت إليــك جنــادلاً وحديــداً
مــا هــذه البــدع التــى ســميتها بالجهــل منــك العــدل والتوحيــدا
أفسدت أمــر الــدين حــين وليتــه ورميتــه بــأبى الوليــد وليــدا
لا محكمــاً جــزلاً ولا مــستطرفاً كهــلاً ولا مــستحدثاً مولــوداً

(١) انظر: الديوان ص (٤٢).
(٢) انظر: الديوان ص (٩٩).

شـــرهاً إذا ذكـــر المكـــارم والعـــلا ذكـــر القلايـــا مبـــدئاً ومعيـــداً
ويود لـــو مـــسخت ربيعـــة كلهـــا وبنـــو "إيـــاد" صـــحفة وثريـــدا
وإذا تربـــع فـــى المجـــالس خلتـــه ضبعاً وخلـــت بنـــى أبيـــه قـــرودا
وإذا تبـــسم ضـــاحكاً شـــبهته شـــرقاً تعجـــل شـــربه مـــزؤودا
لا أصبحت بالخير عـــين أبـــصرت تلـــك المنـــاخر والثنايـــا الـــسودا

صب جام غضبه فى هجائه "أحمد بن أبى دؤاد" بسبب ما أحدثه فى الـــدين من بدع زاعماً أن ما صنعه عدل وتوحيد وأنه من صميم الدين وسمى جماعتـــه "أهل العدل والتوحيد"، وكان معتزلياً؛ وعليه فقد أفسد أمـــر الـــدين بـــذلك وزاده فساداً عندما سعى فى تولية ابنه "محمد" ديوان المظالم بسامراء وعزله "المتوكل" سنة ٢٣٧هـــ؛ وذلك لأنه لا يجيد أمراً من أمور الدين ولا أمور الحكم والقضاء؛ فهو لا يعرف سوى نهب الأموال يأكل ويتمتع كالحيوانات، ومـــن يـــراه يظنـــه ضبعاً، وإذا تبسم كمن شرق بشربه متعجلاً؛ فلا بارك الله فى عين رأت مناخره أو ثناياه السود.

ومن قصائد الهجاء عند ابن الجهم "الرائية"، التى هجا بها قوماً مـــن ولـــد على بن هشام[١]؛ فقد عربدوا عليه فى مجلس، فغضب وخرج مـــن المجلـــس، واتصل الشر بينهم حتى تقاطعوا وهجروه وعابوه واغتابوه؛ فقـــال يهجـــوهم[٢]:

(من البسيط)

(١) ولاه المأمون عدة أعمال آخرها "أذربيجان"، فبلغه أنه يظلم الناس ويأخذ أموالهم، ويقتل الرجال فأمر بقتله سنة ٢١٧ هـــ (الكامـــل لابـــن الأثيـــر جـــــ٦/ ١٤٢، تـــصحيح عبدالوهاب النجار.

(٢) انظر: الديوان ص (١٢١).

بنى متيم هل تدرون ما الخبر ... وكيف يستر أمر ليس يستتر
حاجيتكم من أبوكم يا بنى عصب ... شتى ولكنما للعاهر الحجر[1]

قد كان شيخكم شيخاً له خطر ... لكن أمكم فى أمرها نظر
ولم تكن أمكم والله يكلؤها ... محجوبة دونها الحراس والستر
كانت مغنية الفتيان إن شربوا ... وغير ممنوعة منهم إذا سكروا
وكان إخوانه غراً غطارفة ... لا يمكن الشيخ أن يعصى إذا أمروا
قوم أعفاء إلا فى بيوتكم ... فإن فى مثلها تخلع العذر
فأصبحت كمراح الشول حافلة ... من كل لاقحة فى بطنها درر
فجئتم عصباً من كل ناحية ... نوعاً مخانيث فى أعناقها الكبر
فواحد كسروى فى قراطقه[2] ... وآخر قرشى حين يختبر
ما علم أمكم من حل مئزرها ... ومن رماها بكم يا أيها القذر
قوم إذا نسبوا فالأم واحدة ... والله أعلم بالآباء إذ كثروا
لم تعرفوا الطعن إلا فى أسافلكم ... وأنتم فى المخازى فتية صبر
أحببت إعلامكم أنى بأمركم ... وأمر غيركم من أهلكم خبر
تفكهون بأعراض الكرام وما ... أنتم وذكركم السادات يا عرر[2]

---

(١) حاجيتكم: كلمتكم على طريق الأحجية من الحديث الشريف "الولد للفراش وللعاهر الحجر". والعاهر الزانى؛ أى لا حظ للزانى فى الولد وإنما هو لصاحب الفراش؛ أى للزوج، النهاية لابن الأثير جـ٤/٦٠. والحديث روته عائشة (رضي الله عنها) فى الجامع الصحيح للبخارى ص٧١٨٢.

(٢) قراطق: جمع قرطق وهو القباء، معرب.

هذا الهجاء الــذى تبقــى مياســمه[١] على جبــاهكم مــا أورق الــشجر

صدق ابن الجهم عندما سمى هذا الهجاء ووصفه بأنه سمة لا تزول عــنهم طول الدهر؛ فكل ما ذكر رد على هجائهم إياه وعربدتهم فيه وغيبتهم لــه، فهــم بنو أم واحدة وآباؤهم شتى؛ لأنها لم تدر من حل مئزرها؛ فقــد ســكرت ممــا تشرب من خمر، وتعانق الفجار أصحاب اللهو والمجون، وهم على هذا مختلفــو النسب؛ فواحد كسروى أبوه فارسى، وآخر قرشى أبوه عربى، وقد استحقوا هــذا الهجاء حيث أنشبوا ألسنتهم فى أعراض الكرام أمثاله من بنى "هاشم بــن عبــد مناف"، وما كان لهم أن يصنعوا ذلك معه.

وممن هجاهم ابن الجهم؛ فى مقدمتهم الوزير "محمــد بــن عبــد الملــك الزيات[٣]؛ وذلك فى قصيدته التائية؛ وفيها يقول[٤]: (من الرجز)

لعــــــائن الله متتابعــــــات مــــــصبحات ومهجــــــرات
علــى ابــن عبــد الملــك الزيــات عــرض شــمل الملــك للــشتات
وأنفــــذ الأحكــــام جــــائرات علــــى كتــــاب الله زاريــــات
وعــن عقــول النــاس خارجــات يرمــــى الــــدواوين بتوقيعــــات
معقــــدات كرقــــى الحيــــات سبحان مــن جــل عــن الــصفات
بعد ركوب الطــوف فــى الفــرات وبعــد بيــع الزيــت بالحبــات
صــرت وزيــراً شــامخ الثبــات هــرون يــا ابــن ســيد الــسادات

---

(١) المياسم: جمع ميسم وهو هنا أثر الوسم.

(٢) العرر: جمع عرة هو الرجل يكون شين القوم؛ يقال فلان عرة أهله.

(٣) الزيات: هو محمد بن عبد الملك الزيات الوزير الأديب المشهور ولد ســنة ٢٧١هـــ ووزر للمعتصم و"الواثق"، نكبه "المتوكل" وأمر بتعذيبه حتى مات سنة ٢٣٣هـ.

(٤) انظر: الديوان ص (٨١).

أمـــا تـــرى الأمـــور مهمـــلات تـــشكو إليـــك عـــدم الكفـــاة
فعاجـــل العلـــج بمرهقـــات من بعـد ألـف صـخب الأصـوات
بمثمـــرات غيـــر مورقـــات تـــرى بمتنيـــه مرصـــفات

ترصف الأسنان فى اللثات

استنزل اللعنات المتتابعات صباح مساء علـى رأس هـذا الـوزير الـذى عرض الملك أيام "الواثق" للشتات حيث خرج بأحكام ليست من الشرع الحنيـف فى شىء؛ فى حين ترك أحكام شرع الله فلم يحكم بها، لقد كان قبـل أن يـصبح وزيراً يبيع الزيت بالحبات، ويصيد السمك من البحر؛ فمن أدراه بقوانين الخلافة التى هى أحكام الله، وهنا يطالب "ابن الجهم" الخليفة "الواثق" أن يقيل هذا الوزير ويعفيه ويعزله عن منصبه كى يعتدل الميزان، ويرى الناس أحكام الله فيهم تنفـذ فيعم العدل والمساواة وينتشر الخير وتعم البركة.

ومن هذا اللون؛ هجاؤه ندماء "المتوكل" فى قـصيدته "الهمزيـة"؛ وفيهـا يقول[1]: (من الوافر)

توكلنـــا علـــى رب الـــسماء وســـلمنا لأســـباب القـــضاء

وفيها يقول أيضاً:

توق الناس يـا ابـن أبـى وأمـى فهـم تبـع المخافـة والرجـاء
ولا يغـررك مـن وغـد إخـاء لأمـر مـا غـدا حـسن الإخـاء
ألـم تـر مظهـرين علـى غـشا وهـم بـالأمس إخـوان الـصفاء
بليـت بنكبـة فغـدوا وراحـوا علـى أشـد أسـباب الـبلاء

(١) انظر: الديوان ص (٥٨).

أبـــت أخطـــارهم أن ينـــصرونى بمـــــال أو بجـــــاه أو بـــــراء
وخـــافوا أن يقـــال لهـــم خـــذلتم صـــديقاً فـــادعوا قـــدم الجفـــاء
تـــضافرت الـــروافض والنـــصارى وأهـــل الاعتـــزال علـــى هجـــائى
فبختيـــشوع يـــشهد لابـــن عمـــرو وعـــزون لهـــرون المرائـــى
وما الجـــذماء بنـــت أبـــى ســـمير بجـــذماء اللـــسان عـــن الخنـــاء
وعـــابونى ومـــا ذنبـــى إلـــيهم ســـوى علمـــى بـــأولاد الزنـــاء
إذا مـــا عـــد مـــثلهم رجـــالا فما فضل الرجـــال علـــى النـــساء
علـــيهم لعنـــة الله ابتـــداءً وعوداً فى الصباح وفـــى المـــساء
إذا ســـميتهم للنـــاس قـــالوا أولئك شـــر مـــن تحـــت الـــسماء
أنـــا المتـــوكلى هـــوى ورأيـــاً ومـــا بالواثقيـــة مـــن خفـــاء
ومـــا حـــبس الخليفـــة لـــى بعـــار ولـــيس بمؤيـــسى منـــه التنـــائى

هذه القصيد أول ما قال فى الحبس كتب بها إلى أخيه ليوصلها إلى الخليفـــة "المتوكل"، وفيها يظهر تجلده وصبره على حبسه ما دام هذا يرضـــى الخليفـــة، وفيها يهجو خصومه من جلساء "المتوكل" وندمائه الذين أوقعوا العـــداوة بينهمـــا بعد المودة التى كانت تجمعهما حتى أمر بحبسه، وفيها يعلـــن تمـــسكه بمذهبـــه السياسى ورأيه فى خلافة بنى العباس؛ فرأيه وهواه معهم، وهم أولى من غيرهم بخلافة المسلمين، فهم أولو الأرحام الذين وصى بهم الله (ﷻ)، وقد مهد لهجـــاء خصومه بوصية غالية لكل الناس فعلى المخلصين مـــنهم أن يحـــذروا صـــداقة الخائنين الأوغاد، وأن يتحروا الثقة فى اختيار الأصدقاء فكم من وغد ليس مـــن وراء صداقته إلا الغدر والخيانة، وها هو الدليل يقيمه جليـــاً واضـــحاً: هـــؤلاء الندماء أظهروا له وداً وصداقة غير صادقة وعندما ابتلى بنكبته كانوا هم ســـببها حتى سجن وقيد فى سجنه وكان يرجو منهم شفاعة فلم يجدها، فـــسجل علـــيهم

هجاء فى شعر يروى وتسير به الركبان؛ فهم روافض ومعتزلة ونصارى وهم أولاد الزناء وموطن كل عيب، ولا يعدون فى الرجال أبداً لأنهم شر من تحت السماء.

هذه أمثلة للهجاء الخالص من شعر "على بن الجهم"؛ فقد خص قصائد بعينها أو أبياتاً تحمل هجاء من أراد هجاءه رداً عليهم ما صنعوه معه من هجاء.

وهناك لون من الهجاء ورد ضمن قصائد مدح ومن قصائد هذا اللون قصيدة: "هذا العقيق"؛ وفيها يمدح "المتوكل" ويهجو أعداءه الذين ظلموه وظلموا الرعية باسم الخليفة وبحكم منصبهم فى دولة الخلافة حتى جاء "المتوكل" فأعانه ربه عليهم واقتص منهم؛ وفيها يقول[1]:

(من الكامل)

وقصيدة غراء يفنى الدهر قبل فنائها
تبقى على الأيام نصب صباحها ومسائها
لم تستمح أيدى الرجال بمدحها وهجائها
باتت تصان فآن أن تهدى إلى أكفائها
حتى إذا أكملت رغب الرأى فى إبقائها
خص الخليفة "جعفر" بن "محمد"[2] بثنائها
ملك أعدته الملو ك لخوفها ورجائها
مازال مذولى الخلا فة وارتدى بردائها
متوكلاً فيها على من خصه بسنائها

(١) انظر: الديوان ص (٦١).

(٢) جعفر بن محمد: هو المتوكل بن المعتصم.

تدنيـــــه أمـــــة أحمـــــد ... للثـــــأر مـــــن أعـــــدائها
مـــن بعـــد مـــا طعنـــت قـــرو ... ن الـــشرك فـــى أحـــشائها
وتحكـــــم الزيـــــات فـــــى ... أموالهـــــا ودمائهـــــا
زار علـــــى ســـــنن النبـــــى ... يجـــــد فـــــى إطفائهـــــا
والرخجـــى الأعـــور الدجـــــ ... ـــــال مـــــن أمرائهـــــا[1]
يمـــــضى الأمـــــور معانـــــدا ... لله فـــــى إمـــــضائها
يغـــــرى بقـــــذف المحـــــصنا ... ت ولـــــيس مـــــن أبنائهـــــا
كانـــــت غياهـــــب فتنـــــة ... والنـــــاس فـــــى عميائهـــــا[2]
متحيـــــرين كمـــــا تحـــــا ... ر الـــــبهم بعـــــد رعائهـــــا
بينـــــا كـــــذلك إذ أضـــــا ... ء الحـــــق فـــــى ظلمائهـــــا
واختـــــار ربـــــك "جعفـــــر" بـــــ ... ـــــن "محمـــــد" لجلائهـــــا

خص "المتوكل" بالمدح وبنى ذلك على ما قام به فى سبيل إطفاء تلك الفتنة التى أشعل نارها الوزير الزيات أيام "الواثق" حيث تحكم فى أموال الناس ودمائهم يقضى بما يشاء ويحكم بما يريد ولا رادع له من دين، والرخجى الذى عاث فساداً ورمى المحصنات بالفجور، ولا يستحق أن ينسب إليهن. فكما أن القصيدة فى مدح "المتوكل" فقد حملت هجاء اثنين من الفساق المتجبرين.

---

(١) الرخجى: هو عمر بن فرج الرخجى كان من بطانة "الواثق"، وكله على أخيه "المتوكل" يكتب إليه بأخباره، فلما أفضت الخلافة إلى "المتوكل" أمر بحبسه وقبض ضياعه وأمواله (الطبرى جـ١١/ ٢٧، ص(٣٠)).

(٢) انظر: الديوان ص (٦١).

ومن هذا النوع أيضاً قصيدته الدالية: "قالت حبست"[1]؛ وفيها يمدح "المتوكل"، ثم يهجو أعداءه الذين كادوا له عند "المتوكل" ويقول: (من الكامل)

يا أحمد بن أبى دؤاد إنما ... تدعى لكل عظيمة يا أحمد
بلغ أمير المؤمنين ودونه ... خوض العدى ومخاوف لا تنفد
أنتم بنو عم النبى محمد ... أولى بما شرع النبى محمد
ما كان من حسن فأنتم أهله ... طابت مغارسه وطاب المحتد
أمن السوية يا ابن عم محمد ... خصم تقربه وآخر تبعد
إن الذين سعوا إليك بباطل ... أعداء نعمتك التى لا تجحد
شهدوا وغبنا عنهم فتحكموا ... فينا وليس كغائب من يشهد
لو يجمع الخصمين عندك مشهد ... يوماً لبان لك الطريق الأقصد
فلئن بقيت على الزمان وكان لى ... يوماً من الملك الخليفة مقعد
واحتج خصمى واحتججت بحجتى ... لفلجت فى حججى وخاب الأبعد
والله بالغ أمره فى خلقه ... وإليك مصدرنا غداً والمورد
ولئن مضيت لقلما يبقى الذى ... قد كادنى وليجمعنا الموعد
فبأى ذنب أصبحت أعراضنا ... نهباً يشيد بها الليئم الأوغد

---

(١) قال المسعودى فى مروج الذهب جـ٢/ ٢٧٤ (.... وله فى الحبس شعر معروف لم يسبقه إلى معناه أحد وهو قوله: "قالت حبست)، وقال أبو الفرج الأصفهانى فى الأغانى جـ١٠/٢١٣ (وأحسن شعر قاله فى الحبس قصيدته التى أولها قالت حبست" وقال ابن خلكان جـ١/ ٤٤٢ (وله وقد حبس أبياته المشهورة التى أولها قالوا حبست وهى أبيات جيدة فى هذا المعنى ولم يعمل مثلها) انظر الديوان ص٨٨. وانظر: وفيات الأعيان لابن خلكان جـ١/٤٤٢ تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت.

فقد هجا أعداءه الذين كادوا له لدى "المتوكل" فى قصيدة مدح بها "المتوكل"، وفيها يطلب من "أحمد بن أبى دؤاد" أن يبلغ الخليفة منه رسالة يوضح فيه كيد الكائدين له عنده فهم إن كادوا شخصه اليوم فسيكيدون للخليفة غداً وللإسلام بعد غد، وكيف يحدث هذا ويعلم بذلك "المتوكل" وهو من قوم لا يصنعون إلا الحسن الجميل الصادق؛ وليس من ذلك خصم يقرب ويسمع له افتراؤه وكذبه وكيده، وخصم يبعد دون أن يسمع له قول أو تناقش له حجة، وهل من شهد فتحكم فى رقاب الغائب يتساوى به من غاب، ولو جمع الخصمين مجلس لدى الخليفة لقامت الحجة على الدليل وسطع البرهان سطوع الشمس فى واضحة النهار، ولما صارت الأعراض الشريفة نهباً لألسنة الأوغاد دون ذنب أو جريرة.

ومن خصائص هذا الغرض نعرض لما قاله قدامة فيه:

يقول "قدامة بن جعفر" فى نعت هذا الغرض: "إنه قد سهل السبب إلى معرفة وجه الهجاء وطريقه ما تقدم فى قولنا فى باب المديح وأسبابه، إذ كان الهجاء ضد المديح، فكلما كثرت أضداد المديح فى الشعر كان أهجى له ثم تنزل الطبقات على مقدار قلة الأهاجى فيها وكثرتها؛ فمن الهجاء المقذع الموجع ما أنشدناه أحمد بن يحيى:

كاثر بسعد إن سعداً كثيرة ... ولا تبغ من سعد وفاء ولا نصرا
ولا تدع سعداً للقراع وخلها ... إذا أمنت من روعها البلد القفرا
يروعك من سعد بن عمرو جسومها ... وتزهد فيها حين تقتلها خبرا

فمن إصابة المعنى فى هذا الهجاء أن هذا الشاعر سلم لهؤلاء القوم أمرين يظن أنهما فضيلتان، وليستا بحسب ما وصفناه من الفضائل فضيلتين، وهما: كثرة العدد وعظم الخلق، وغزا بذلك مغازى دلت على حذقه فى الشعر؛ منها:

أن أدخل لهم هجاء فى باب الأقوال الصادقة لإعطائه إياهم شيئاً ومنعه لهم شيئاً آخر وقصده بذلك أن يظن أن قوله فيهم إنما هو على سبيل الصدق وذكره إياهم بما فيهم من جيد وردىء. ومنها: ما بان من معرفته بالفضائل حتى يميز صحيحها من باطلها فسلم الباطلة ومنع الصحيحة. ومنها: أنه قطع عن هؤلاء القوم ما يعتذر به الكرام من قلة العدد، فإن الكرام أبداً فيهم قلة، كما قال السموأل:

تعيرنى أنا قليل عديدنا فقلت لها إن الكرام قليل(١)

نقول فهل سلك ابن الجهم هذا المسلك أو أتى بما يشبهه فى هجائه هذا ما سنعرفه فى الصفحات القادمة.

ذكرنا من قبل أن ابن الجهم قد صب جام غضبه وهجائه على الوزراء والقادة الذين اتصلوا بالخلفاء وانحرفوا عن جادة الطريق؛ فلم ينصحوا للخلفاء، واستعبدوا الرعية خسفاً وذلاً، وغيروا وبدلوا فى الدين وابتدعوا بدعاً ما أنزل الله بها من سلطان؛ فهم فى رأيه خارجون مضللون يستحقون الهجاء، أما الخلفاء فهم القادة والحكام وخلفاء المسلمين هم الأسوة والقدوة والرمز الأعلى للإسلام يجب أن يصانوا وتحفظ مكانتهم فى القلوب لا تمتد إليهم الألسنة بسوء؛ فلم يهج خليفة قط لعلمه بسمو مكانتهم وقداسة منزلتهم، فكان كل مديحه فيهم وكل ثنائه عليهم، وقد وضحنا من قبل كيف قصر ابن الجهم مديحه على الخلفاء من بنى العباس، وكان يفخر بأنه من أهل خراسان الذين ناصروا الخلافة العباسية فقامت على أكتافهم؛ يقول:

مذهبى واضح وأصلى خراسا ن وعزى بعزكم موصول

(١) انظر: نقد الشعر ص (١١٣)، مصدر سابق.

ويقول:

أنـــا المتـــوكلى هـــوى ورأيـــا ومـــا بالواثقيـــة مـــن خفـــاء

ويقول:

نحن أشياعكم مـــن أهـــل خراســـا ن أولـــو قـــوة وبـــأس شـــديد
نحن أبنـــاء هـــذه الخـــرق الـــسو د وأهـــل التـــشيع المحمـــود
إن رضيتم أمـــراً رضـــينا وإن تـــأ بـــوا أبينـــا لكـــم إبـــاء الأســـود
لا نـــوالى لكـــم عـــدواً ولا نحـــ ـــمل ضغناً علـــى الـــولى الـــودود
حسبنا الله والخليفة من بعـــ ـــد ومـــن بعـــده ولاة العهـــود

فاقتصر هجاؤه على الوزراء والقادة، كما اقتصر مديحه على الخلفاء، ولم يهج أقرانه من الشعراء فكان يراهم دونه منزلة حتى لو تعرضوا له بالهجاء إلا مضطراً فى مجلس "المتوكل"(١).

وقد قسمنا هجاءه كما ورد قسمين: منه ما ورد ضمن قـصائد مـدح لأن السياق اقتضاه والموضوع طلبه، ومنه هجاء خالص انفردت به قصيدة أو عـدة أبيات، وكلا النوعين باندراجهما تحت غرض الهجاء لايفترقـان فـى الـسمات كثيراً سوى أن ما ورد منه ضمن قصيدة المديح يلمسه لمـساً خفيفـاً لانـشغاله بصفات الممدوح وتعدادها؛ فهى فى رأيه الغرض الرئيس والموضوع الأصـيل الذى إليه يرمى ويهدف، ثم يطوى فيه هجاء من أراد هجاءه، وله من السمات ما سنعرض له فى محله من الدراسة.

(١) انظر هذه الدراسة ص (٣٨).

وحديثنا الآن عن النوع الذى انفردت به قصيدة أو عدة أبيات وفيه نجد ابن الجهم يثبت صفات ذم للمهجو تؤذيه وتوضح عيوباً طالما سترها صاحبها عن الناس أو ادعى ضدها، وصفات قد تؤدى إلى فضيحته جزاء ما قال وصنع، وهى صفات تبقى على مر العصور لورودها فى شعر يروى ويدون ويتندر به الناس فى مجالسهم، وليكون المهجو عبرة لمن يعتبر خاصة إذا كان فى مركز ومنزلة كبيرة كقائد أو وزير؛ ومن هذا اللون هجاؤه الوزير "محمد بن عبدالملك الزيات" وزير "الواثق"؛ فبعد أن كان من عامة الناس وسوقتهم، وكان يركب الطوف فى الفرات لصيد السمك، وكان يبيع الزيت بالحبات، صار وزيراً شامخ الثبات، وهذا غير معقول لأنه وضع الرجل غير المناسب فى المكان المناسب، من أدراه بأمور الحكم وسير النظام فى خلافة لها خطرها ومنزلتها ومكانتها، ولهذا غير وبدل فى أحكام الله، وأهمل أمور الرعية وفسدت الأحوال، والشاعر يرصد كل هذا بعينه الباصرة وذهنه الثاقب فقام بدوره يهجوه وينادى "الواثق" أن يقيله من منصب خطير كهذا ويولى الأكفاء، وقد وضح له السبب فى ثوب الهجاء مستنزلاً اللعنات عليه صباح مساء".

ومن هؤلاء "أحمد بن أبى دؤاد" قاضى القضاة الذى ابتدع بدعاً لا أساس لها من الدين وسماها العدل والتوحيد، وولى ابنه أبا الوليد ديوان المظالم وهو الجاهل الذى لا يفهم شيئاً فى الحكم ولا يفقه شيئاً فى أمور الدين، فوصفه بصفات ذم كثيرة، ودعا عليه فضم ذمه إلى ذم أبيه فى قصيدة واحدة.

وقد هجا قوماً عربدوا عليه بهجاء وسمهم به ليفضحهم على رءوس الناس؛ فهم قوم لا يعرفون لهم أباً ينتسبون إليه؛ فأمهم كانت مغنية الفتيان تشرب معهم وتغنى لهم وترقص أمامهم، وهى نشوى لا تدرى من منهم حل مئزرها ليفعل معه فاحشة الزنا فجاءوا جميعاً أبناء أم واحدة، وآباء مختلفين لهم فى المخازى

تاريخ لو تفكروا فيه ما عابوا غيرهم أبداً، ولا تعرضوا لهتك أعراض الكرام أمثاله.

وهؤلاء هم جلساء "المتوكل" وندماؤه الذين كادوا لابن الجهم حتى أصابه ما أصابه من السجن والنفى وغيره هجاهم بأقذع صفات الذم وأقبحها؛ فقد كانوا يظهرون له صفات غش وخداع فى المودة والصداقة حتى أذاقوه مرارة الكيد فكانوا هم أسباب البلاء والنكبة التى حلت به، وصفهم بأنهم روافض ونصارى وأهل اعتزال اجتمعوا على الكيد له لأنه يقول ويعمل بالسنة، ومنهم "بختيشوع" الذى يشهد للفاسق "ابن عمرو"، ومنهم "عزون"، الذى يتآمر مع "هرون" المرائى، ومنهم "الجذماء" بنت أبى سمير هذه الملعونة التى طالما آذته سباً وعربدة وكيداً؛ وما ذاك إلى لأنه أفضل منهم وأكثر وداً وإخلاصاً للخليفة وهم لا يريدون ذلك، ولأنه يعلم أسرارهم الدفينة فهم أبناء الزناء، وهم ليسوا برجال ولا أنصاف رجال؛ بل نساؤهم أفضل منهم، وهم شر من تحت السماء.

قال قدامة بن جعفر: ومن خبيث الهجاء ما أنشدناه أحمد بن يحيى أيضاً:

إن يغدروا أو يفجروا أو يبخلوا لا يحفلوا
يغدوا عليك مرجلين كأنهم لم يفعلوا

فمن جودة هذا الهجاء أن الشاعر به تعمد أضداد الفضائل على الحقيقة فجعلها فيهم لأن الغدر ضد الوفاء والفجور ضد الصدق والبخل ضد الجود، ثم أتى بعد ذلك بضد أجل الفضائل، وهو العقل حيث قال: وغدوا عليك مرجلين كأنهم لم يفعلوا، لأن هذا الفعل إنما هو من أفعال أهل الجهل والبهيمة والقحة

التى هى من عمى القوة المثيرة كما قال "جالينوس" فى كتابه فى أخلاق النفس(١).

أما عن النوع الثانى من الهجاء، فكما قلنا إنه يرد ضمن قصائد مدح، وهو يشبه هذا النوع تماماً، ولكنه يلمسه الشاعر لمساً خفيفاً لانشغاله بغرض المدح، فهو قصد الشاعر من قصيدته فى المقام الأول ولحاجته فى هذا المقام يتبع المدح به، ومن هذا اللون قصيدته الرائية التى يمدح فيها "المتوكل": "وقائل أيهما أنور"؛ وفيها يقول:

فاسلم لنا يا خير مستخلف ... من معشر ما مثلهم معشر
واسمع إلى غراء سنية ... يسطع منها المسك والعنبر
موقعها من كل ذى بدعة ... موقع وسم النار أو أكثر

قالها يمدح "المتوكل" وفيها يذكر أنها تقع سمة ذل وعار كوسم النار أو أكثر على كل ذى بدعة ابتدعها فى الإسلام من هؤلاء المعتزلة والروافض والزنادقة وأهل الضلال والأهواء، وقد قضى "المتوكل" على فتنتهم؛ وقد شغله مدح "المتوكل" من أول القصيدة حتى وصل إلى أهل البدع فصب عليهم سوط هجائه وذمه وفى ذكر الهجاء ضمن قصائد المدح تأكيد وتوضيح لغرض المدح وتقوية له. وسيأتى توضيح ذلك فى الدراسة الفنية بمشيئة الله تعالى.

٣- الفخر

إذا أتينا إلى الفخر فى العصر العباسى سنجده يختلف عن نظيره فى العصر الجاهلى والأموى اختلافاً جزئياً؛ فمثلاً فى العصر الجاهلى كان الشاعر يفخر بقبيلته وما أحرزته من نصر على القبائل الأخرى واستيلائها على منابع

(١) نقد الشعر ص (١١٤).

الماء ومنابت الكلأ، أو أخذاً بثأرها لدمائها وديانتها، وقوافلها التجارية مثلاً. وفى العصر الأموى تطور الفخر فنجد الشاعر يفخر بقبيلته أو بأفراد منها كان لهم دور مؤثر ومهم فى حياتها، أوله مكرمة يمتدح بها بين العرب، أو يفخر بالآباء والأجداد والأحساب والأنساب فى عشيرته كما نجده عند "الفرزدق". وفى العصر العباسى نجد "أن شعر الهجاء المنبعث عن العصبيات القبلية خفت حدته حتى كاد يتلاشى إلا بقايا تمثلت فى نقائض "ابن قنبر" و"مسلم بن الوليد"، كما تمثلت فى نقائض "دعبل"، و"أبى سعد المخزومى"، ويرجع ذلك إلى تطور واسع فى الحياة، جعل الفخر الجنسى يحل محل الفخر القبلى، مما دفع إلى ظهور الشعوبية، وحقاً بقيت أسراب من هذا الفخر عند القبائل ومواليها، على نحو ما نجد عند "بكر بن النطاح الحنفى"[1] فى مثل قوله مفتخراً بقبيلته "بكر":

ومن يفتقر منا يعش بحسامه ومن يفتقر من سائر الناس يسأل

وكان "أبونواس" يفتخر بمواليه من القحطانيين افتخاراً حاداً، ولكن الدولة كانت له ولبكر وأمثالهما بالمرصاد؛ فقد حبس "الرشيد" "أبانواس" بسبب إحيائه لهذه العصبية، وطلب "بكراً" وهرب منه. وعلى هذا النحو لم تعد تحتدم العصبيات وبالتالى خبت نار النقائض التى كانت مشتعلة فى عصر بنى أمية"[2].

(١) هو أبووائل بكر بن النطاح الحنفى شاعر غزل من فرسان بنى حنيفة من أهل اليمامة (ت١٩٢هـ/٨٠٧م) موسوعة الصعاليك. والأغانى لأبى الفرج الأصفهانى جـ١٩/١٥٠.

(٢) انظر: العصر العباسى الأول ص(٣٥٩) د/شوقى ضيف، دار المعارف القاهرة ط٩ سنة١٩٨٦م.

والجديد حقاً فى الفخر لهذا العصر أن كثيراً من الشعراء صدروا فى فخرهم عن شعور طاغ بالمروءة والكرامة والشيم الرفيعة من مثل قول عوف بن محلم الخزاعى:

وإنى لذو حلم على أن سورتى إذا هزنى قوم حميت بها عرضى
وإنى لأجزى بالكرامة أهلها وبالحقد حقداً فى الشدائد والخفض[1]

وإذا أتينا إلى عصر خلافة "المتوكل" نجد أن "على بن الجهم" فى فخره قد نوع فيه؛ فمرة يفتخر بنسبه القرشى وأنه من آل فهر بن مالك، وهم سدنة البيت الحرام يكرمون حجاجه وعماره من مشارق الأرض ومغاربها، وهم الذين خضعت لهم الملوك، وأمنت فى ديارهم الوحوش والطير؛ وهو القائل[2]: (من الكامل)

إن كنت جاهلة بقومى فاسألى أين النبوة والقضاء الفاصل
والعزة القعساء يلمع دونها بيض الصوارم والوشيج الذابل
أين المنابر والمشاعر والصفا والركن والبيت الحرام الماثل
أين الحجيج محلقين رءوسهم ومقصرين فطائف أوزامل
أين الملوك خواضعاً أعناقها والوحش آمنة السروح هوامل
قومى أولئك إن سألت وإنما يجلو العمى عنه اللبيب السائل
الله يعلم حيث يجعل أمره ما عالم أمراً كمن هو جاهل

(١) انظر: السابق ص (١٧٠).
(٢) انظر: الديوان ص (١٨٤).

ففى قومه نزلت رسالة السماء، فكانوا على مستوى هذه المسئولية لأن الله قد اختارهم لها فقاموا بها على أكمل وجه من حماية حجاج البيت ورعايتهم حتى عودتهم إلى بلادهم وأوطانهم بعد أداء مشاعرهم كاملة، وقومه يعلمون الجاهل ويرشدون الحائر وينشرون دين الله فى الأرض.

وهو القائل[1]. (من الطويل) فى قصيدته الرائية: "صبرت ومثلى صبره ليس ينكر" بعد أن افتخر بنفسه وبما صنع، يفخر بقومه ويرد الفضل إليهم:

وتلك سجاياانا قديماً وحادثاً ... بها عرف الماضى وعز المؤخر
أبت لى قروم أنجبتنى أن أرى ... وإن جل خطب خاشعاً أتضجر
أولئك آل الله فهر بن مالك ... بهم يجبر العظم الكسير ويكسر
هم المنكب العالى على كل منكب ... سيوفهم تفنى وتغنى وتفقر

فهو أبداً لا يخاف ولا يخشع لذل ولا يخضع لهوان أو فرار من الميدان لأنه من آل فهر بن مالك ورث عنهم الشجاعة والفتوة والشهامة فمهما جل الخطب واحتدم القتال فلا بد من الثبات حتى النصر أو الشهادة؛ فتلك هى سجاياهم من قديم فهم السادة والقادة يجبرون كسر الضعيف المستجير بهم، ويكسرون عظم المتجبرين الطغاة فسيوفهم تفنى وتغنى وتفقر من تشاء.

وهو القائل مفتخراً بقومه، وكيف أنهم من أهل خراسان أشياع بنى العباس، وهم أولو قوة وبأس شديد، يؤيدون خلافتهم وحقهم فيها؛ فرضاهم حق عليهم، لا يوالون لهم عدواً ولا يعادون لهم ولياً؛ فيقول[2] فى قصيدته الدالية "اغتنم جدة الزمان الجديد": (من الخفيف)

(١) انظر: الديوان ص (١١٩).
(٢) انظر: الديوان ص (١٠٩).

نحن أشياعكم من أهل خراسا ... ن أولو قوة وبأس شديد
نحن أبناء هذه الخرق السو ... د وأهل التشيع المحمود
إن رضيتم أمراً رضينا وإن تأ ... بوا أبينا لكم إباء الأسود
لا نوالى لكم عدواً ولا نحـ ... ـمل ضغناً على الولى الودود
حسبنا الله والخليفة من بعـ ... ـد ومن بعده ولاة العهود
غرس كفيك يابن عم رسول اللـ ... ـه أنشأتنى وأورقت عودى
أنت كثرت حاسدى وقد كنـ ... ـت زماناً لا أهتدى لحسود

يفتخر بما صنعه قومه من أهل خراسان مع بنى العباس من إقامة دولتهم، والمشاركة فى القضاء على دولة الأمويين، وتأييدهم فى هذا الحق دون غيرهم فهم أولو الأرحام بنص القرآن الكريم فى سورة الأنفال.

ونجد "على بن الجهم" يفخر بنفسه وبما صنع وتحمل كما فخر بقومه من قبل؛ فنجده يقول[1] وهو فى عز نكبته ومحنته عندما أمر "المتوكل" بحبسه وسجنه بسبب ما سمعه من ندمائه عن "على بن الجهم" فأوغروا صدره ضده؛ يقول:

قالت حبست فقلت ليس بضائر ... حبسى وأى مهند لا يغمد
أو ما رأيت الليث يألف غيله ... كبراً وأوباش السباع تردد
والشمس لولا أنها محجوبة ... عن ناظريك لما أضاء الفرقد
والبدر يدركه السرار فتنجلى ... أيامه وكأنه متجدد
والغيث يحصره الغمام فما يرى ... إلا وريقه يراح ويرعد
والنار فى أحجارها مخبوءة ... لا تصطلى إن لم تثرها الأزند

(١) انظر: الديوان ص (٨٨).

والزاعبيـــة لا يقـــيم كعوبهـــا إلا الثقـــاف وجـــذوة تتوقـــد

على الرغم ممايعانيه من غضب الخليفة عليه إلا أنـه قـد أظهـر التجلـد والتماسك؛ لأنه يعلم مدى تأثير الندماء عليه فى اتخاذ كل قرار ضده مما افتروه عليه، وقد قبل أن يحبس بعزة وأنفة وكبرياء؛ فالحبس ليس عيباً، ثم أخـذ يقـيم الأدلة فما من مهند إلا أغمد، وما من أسد إلا يهـوى عرينـه عزيـزاً مكرمـاً مخدوماً من كل الحيوانات، ولولا حجاب الشمس عن الأنظار مـدة الليـل لمـا أضاءت الأرض، وهذا القمر لو لم يدركه السرار مدة النهار لما تجددت أنـواره ولما أضاءت لياليه، وهذه النار لولا أنها مدخرة للعباد فى أحجارها يـستخدمونها عند الحاجة لأحرقت كل شيء، وهذه السهام التـى تـصيب الأعـداء بـالموت والهلاك أقيمت كعوبها بالثقاف والنار الموقدة. ثم يقول فيها أيضاً:

والحـبس مـا لـم تغـشه لدنيـة شـنعاء نعـم المنـزل المتـورد
بيـت يجـدد للكـريم كرامـة ويـزار فيـه ولا يـزور ويحفـد
لولم يكـن فـى الـسجن إلا أنـه لا يـستذلك بالحجـاب الأعبـد

فالحبس ليس ذلاً ولا إذلالاً للكريم الذى دخله ظلماً دون ذنب؛ بل هو بيت فيه تجديد للكرامة؛ لأنه فيه يزار ويقدر وهو لا يزور أحداً، والشرط ألا يدخلـه بجناية وجريرة شنعاء، وإلا فقد لبس عار الذل والهوان والخزى ولو لم يدخلـه محبوساً.

ومما قال فى الفخر بنفسه قصيدته اللامية: "لم ينصبوا بالشاذياخ"؛ بعـد أن أمعن له الأعداء فى الكيد لدى "المتوكل" أمر أن يقيد فى حبسه فقيد؛ فقال:

فلا تجزعـى إمـا رأيـت قيـوده فـإن خلاخيـل الرجـال قيودهـا
ولا تنكرى حـال الرخـاء وفوتـه فـإن أميـر المـؤمنين يعيـدها[1]

ثم زاد الأعداء به كيداً، فأمر أن ينفى إلى خراسان وأمر "طاهر بن عبدالله" أن يصلبه يوماً إلى الليل ثم يحبسه، وقد نفذ "طاهر" ما طلب منه "المتوكل" فلما صلب "على بن الجهم" صلب مجرداً من ثيابه، ثم أنزل آخر اليوم وحبس فقال "على بن الجهم"[2]: (من الكامل)

لم ينصبوا بالشاذياخ صبيحة الإ ثنين مغمورا ولا مجهولاً
نصبوا بحمد الله ملء عيونهم شرفاً وملء صدورهم تبجيلا
ما ازداد إلا رفعة بنكوله وازدادت الأعداء عنه نكولا
هل كان إلا الليث فارق غيله فرأيته فى محمل محمولا
لا يأمن الأعداء من شداته شدا يفصل هامهم تفصيلا
ما عابه أن بزعنه ثيابه فالسيف أهول ما يرى مسلولا
إن يبتذل فالبدر لا يزرى به أن كان ليلة تمه مبذولا
أو يسلبوه المال يحزن فقده ضيفاً ألم وطارقاً ونزيلا
أو يحبسوه فليس يحبس سائر من شعره يدع العزيز ذليلا
إن المصايب ما تعدت دينه نعم وإن صعبت عليه قليلا
والله ليس بغافل عن أمره وكفى بربك ناصراً ووكيلا

المنصوب ليس شبحاً كغيره من الناس؛ بل هو الشرف والأصل والنجابة والعلم، لقد ازداد رفعة بهذا الصلب حيث لم يكن واحداً من هؤلاء المنافقين

(١) انظر: الديوان ص (١١٢).
(٢) انظر: الديوان ص (١٨٥).

المخادعين الذين يضمرون خلاف ما يظهرون والذين دسوا عليه ما ليس فيه فأحدثوا الفرقة بين الصديقين، ولم تخطر لأحدهما على بال فقطعوا من الود ما كان قائماً، ومن العلاقة ما كان موصولاً وهذا ظلم وعدوان منهم، ولم يكن بما حدث سوى أسد فارق عرينه بعض الوقت فحمل على الأعناق تقديراً له واعترافاً بشجاعته التى لا يأمن الأعداء على أنفسهم منها، وهل ترى للسيف فائدة إلا إذا سل من غمده إلى صدور الأعداء يوجه ليصيبهم فى مقتل، والبدر لا يرى ضوؤه كاملاً إلا إذا تمت استدارته، وانقشع عنه غمام السماء، ولو سلبوه ماله لا يحزن عليه، وإن يحبسوه فلن يحبسوا شعره الذى ستسير به الركبان ويرويه الزمان فيدعهم أذلاء، وكل مصيبة حلت به هى فى الحقيقة نعمة ما لم تكن فى دينه، والله يعلم كل ما صنعوه وكفى به ناصراً ووكيلاً. ثم يضيف قائلاً:

لن تسلبوه وإن سلبتم كل ما ... خولتموه وسامة وقبولا
هيهات فات مرزأ وتخلفت ... عنه مقاريف الرجال فلولا
هل تملكون لدينه ويقينه ... وجنانه وبيانه تبديلا
لم تنقصوه وقد ملكتم ظلمه ... ما النقص إلا أن يكون جهولا
كادت تكون مصيبة لو أنكم ... أوضحتم ذنباً عليه جليلا
إن كان سف إلى الدنيئة أو رأى ... غير الجميل من الأمور جميلا
لو تنصف الأيام لم تعثر به ... إذ كان من عثراتهن مقيلا
ولتعلمن إذا الأمور تكشفت ... عنها الأكنة من أضل سبيلا

وكل ما سلب منه هين ما دام معه وجاهته وقبوله من الناس، وكل ما صنعوه واقع بهم هم؛ فهم لا يملكون لدينه ويقينه تحويلاً ولا لجنانه وبيانه تبديلاً؛ فكل ما نقصوه منه لا يعد شيئاً لأنه ظلم وافتراء؛ فالنقص الحقيقى فى عرفه وعرف العقلاء أن يكون جهولاً، ومصيبته الكبرى ليست فى حبسه أو

الكيد له؛ بل هى أن يتردى فى ذنب أو فاحشة، أو يرى غير الجميل جميلاً، وما كان للأيام أن تصنع به كل هذا أما وقد حدث فلا بد من الصبر حتى تتكشف الستور وتتضح الأمور فسيعلمون من أضل سبيلاً.

ومما قال فى الفخر بنفسه ما ورد فى قصيدته المشهورة: "عيون المها بين الرصافة والجسر"؛ يقول[1]: (من الطويل)

صلى واسألى من شئت يخبرك أننى ... على كل حال نعم مستودع السر [2]
وما أنا ممن سار بالشعر ذكره ... ولكن أشعارى يسيرها ذكرى
وللشعر أتباع كثير ولم أكن ... له تابعاً فى حال عسر ولا يسر
وما الشعر مما أستظل بظله ... ولا زادنى قدراً ولا حط من قدرى
ولكن إحسان الخليفة "جعفر" ... دعانى إلى ما قلت فيه من الشعر
فسار مسير الشمس فى كل بلدة ... وهب هبوب الريح فى البر والبحر
ولو جل عن شكر الصنيعة منعم ... لجل أمير المؤمنين عن الشكر

إنه الأمين على كل سر؛ لا يفشى سر صديقه ولا سر عدوه، وقليل من الناس من يصنع ذلك، وهو فى ذلك يختلف عنهم، ويختلف عن زملائه من الشعراء أنه لم يتكسب بشعره مثلهم، ولم يمدح إلا خليفة، ولا يمدحه لماله أو عرضه؛ بل لأنه خليفة المسلمين وحاكمهم والقائم على شئونهم، وفى الأغلب الأعم أن صلة الخلفاء له وتقريبهم له هو الدافع له إلى مدحهم والثناء عليهم

(١) انظر: الديوان ص (١٣٥).

(٢) هذه القصيدة من أشهر قصائد على بن الجهم وبها- بل بقسم منها- اشتهر بين الأدباء ومنهم ابن شرف القيروانى فى أعلام الكلام ص(٢٣)، طبقات الشعراء لابن المعتز ص١٥٢، ومروج الذهب جـ٢/٢٧٤.

بشعر لم يصنعه إلا مكافأة لهم على هذه الصلة، وجزاء على هذا التقريب، فلم يكن يوماً ما تابعاً لشعره كى يشتهر به، بل ذكره وسيرته الحسنة هى التى سيرت شعره فى الآفاق، ولم يزدد قدراً بشعره، ولا الشعر حط من قدره؛ فهو منشئه وناظمه ومنشده.

ومن فخره بنفسه بعد خروجه من الحبس ورجوعه إلى بغداد، وعلمه بمقتل "المتوكل" ورثائه له بقصيدة ستأتى فى محلها من هذه الدراسة قوله فى رائيته: "صبرت ومثلى صبره ليس ينكر وليس على ترك التفحم يعذر. ومناسبتها أنه خرج فى قافلة قاصداً الثغر، فلما كانوا فى "خساف"[1] خرج عليهم نفر من الأعراب الكلبيين، فهرب من كان فى القافلة من المقاتلة، وثبت "على" فقاتلهم قتالاً شديداً، ولم يحظوا منه بشىء، وفى ذلك يقول: (من الطويل)

صبرت ومثلى صبره ليس ينكر ... وليس على ترك التقحم يعذر
غريزة حر لا اختلاق تكلف ... إذا خام فى يوم الوغى المتصبر
ولما رأيت الموت تهفو بنوده ... وبانت علامات له ليس تنكر
وأقبلت الأعراب من كل جانب ... وثار عجاج أسود اللون أكدر
بكل مشيح مستميت مشمر ... يجول به طرف أقب مشمر
بأرض خساف حين لم يك دافع ... ولا مانع إلا الصفيح المذكر
فقلل فى عينى عظم جموعهم ... عزيمة قلب فيه ما جل يصغر
بمعترك فيه المنايا حواسر ... ونار الوغى بالمشرفية تسعر
فما صنت وجهى عن ظبات سيوفهم ... ولا انحزت عنهم والقنا تتكسر
ولم أك فى حر الكريهة محجماً ... إذا لم يكن فى الحرب للورد مصدر

(١) خساف: برية بين بالس وحلب: معجم البلدان، الأغانى جـ١٠/٢١٦، طبعة دار الكتب المصرية.

صبر على قتال الأعراب رغم فرار المقاتلة الذين كانوا معه، فلم يفر مثلهم لأنه ما تعود الفرار من الميدان، ولا يعرف ذلك فى نفسه فأخلاقه لا تسمح له أن يفر، وقد رأى الموت يقترب منه، والأعراب يأتون إليه من كل مكان قاصدين قتله، وكانت عزيمة قلبه وإيمانه هى التى قللت جموعهم فى عينيه فأقبل عليهم مرحباً بالموت يخوض نار الحرب وجهاً لوجه وسيوفهم تنتاشه فلم يحجم عن مواجهتهم بسيفه، ولا انحاز فاراً؛ بل كسر سيوفهم ورماحهم. فلما رأى الناس شجاعته ومثابرته ثابوا إليه فدفعهم، ولم يحظوا بشىء منه؛ يقول:

إذا ساعد الطرف الفتى وجنانه ... وأسمر خطى وأبيض مبتر
فذاك وإن كان الكريم بنفسه ... إذا اصطكت الأبطال فى النقع عسكر
منعتهم أن ينالوا قلامة ... وكنت شجاهم والأسنة تقطر

إن عدة المقاتل هى العقل والفرس والرمح والسيف والهمة والشجاعة، وبهذه كلها استطاع أن يهزم أعداءه، فصاروا يتحدثون عن شجاعته، فلما كان من غد خرج على القافلة منهم خلق كثير، فتسرعت إليهم المقاتلة، وخرج "على" فيهم فأصابته طعنة قتلته.

أما عن خصائص الفخر فى شعر على بن الجهم؛ فمنها ما هو خاص إذا افتخر بنفسه فنجده يعدد صفات هى فيه ورثها عن قومه وآبائه لا يدعيها؛ بل يعددها صادقاً؛ فلم يعرف فى حياته سوى الصدق الذى تطمئن له نفسه؛ تحمل كيد ندماء "المتوكل" وهجاءهم إياه فى مجلسه ولم يرد إلا عندما أمره "المتوكل" متهماً إياه بالعى إذا لم يرد فرد على هاجيه مرغماً وانتصف لنفسه، ثم صبر على حبس لم يكن يخطر له على بال، ونفى لم يتوقعه فى حياته حيث كان ذلك بأمر صديق حبيب مقرب إلى نفسه هو الخليفة "المتوكل" ثم صلب ثم حبس، فهو

يفخر بذلك كله لأن له إرادة صلبة وعزماً قوياً؛ فما من سيف إلا أغمد، وما من أسد إلا يهوى عرينه، وما من شمس إلا يحجبها الغمام، وما من بدر إلا يدركه السرار ليالى معدودات، وما من غيث إلا يحمله السحاب ليروى الأرض من جديد(١).

ويفخر بأنه لم يسجن فى جريمة أو ذنب يغضب ربه، ولم يحزن على صلبه عريان؛ بل حول ذلك إلى موضوع للفخر فما من أسد إلا يفارق عرينه بعض الوقت متنزهاً أو متفقداً أحوال الغابة، وما من سيف إلا يسل من غمده ليوجه إلى صدور الأعداء دفاعاً عن دين الله، وذوداً عن الحمى، ولا يذم البدر ليل تمامه فالناس معه فى سعادة غامرة، ويفخر بعفته وطهارته فلم تؤثر المصائب فى دينه وعقيدته، كما يفخر بأنه الصابر الصبور الذى لا تحوله المصائب عن مبادئه التى آمن بها؛ فكل مصيبة دون الدين هى نعمة له يشكر ربه عليها. وهو الذى صار أخاً للصبر؛ فقد انسجم مع حياته فى كل أطوارها وقبل منها ما تيسر له من صروفها خيراً وشراً، وكان يشعر دائماً بأنه فى عز نفسى واطمئنان قلبى.

ومن دلائل صبره وصدقه قتاله الأعراب الذين خرجوا على قافلته، وقد رأى الموت بعينه يدنو منه فصبر وقاتل، ويعلن بأنها غريزة حر وطبيعة فيه؛ لم يتكلفها فلديه قلب خلق من عزيمة صلبة وإرادة قوية يقل لديها ما كثر من الأهوال ويصغر ما كبر من المصائب؛ فلم يفر منهم لأنه ما تعود الفرار ولا يعرفه، وقاتلهم فى صبر حتى قتل.

(١) انظر: ص (٥٩) من هذه الدراسة.

وهو الذى تغنيه شجاعته عن فقره؛ فهو دائماً فى مقدمة الصفوف، وهو لم يؤذ كريماً أبداً، ولم يلم لئيماً أبداً للؤمه وبخله إلا لأنه يريد له الكمال.

ومن صفات الفخر لديه ما هو عام، وذلك عندما يفخر بقومه واصفاً إياهم بأنهم أهل الله أبناء فهر بن مالك؛ فيهم النبوة والقضاء الفاصل، أهل عزة وأنفة وشمم وإباء أهل شجاعة وحماية للبيت الحرام وحجاجه، ولولاهم ما حج البيت حاج ولا طاف طائف ولا ركع راكع وصلى؛ فهم الذين خضعت لهم الملوك وأمنت فى حماهم الوحوش، وهذا الأمر مرجعه إلى اختيار الله لهم لا يريد من وراء ذلك إحياء عصبية قديمة، ولكن يبين لنا دورهم فى خدمة دين الله قديماً وحديثاً، وقومه من قريش هم المنكب العالى وسيوفهم هى التى تؤثر فى حياة الناس غنى وفقراً عزاً وذلاً، وهو منهم فضم الفخر بنفسه إلى فخره بقومه، وقومه من أهل خراسان أولو قوة وبأس ولولاهم ما قامت الدعوة العباسية التى أعزت الإسلام، وخلصت الناس من شر بنى أمية. فما ذكر من صفات يدور حول دور قومه وعشيرته فى سبيل عزة الدين، وهذا يشبه ما ذكر من صفات افتخر فيها بنفسه ذكرناها سابقاً.

٤- الرثاء

يرتبط الرثاء بالموت؛ فما من حى يرثى؛ بل يمدح؛ أما الميت فيمدح رثـــاء بما كان فيه من صفات حسنة وهو حى يرزق، هذا هو الرثاء مذ رثى الـــشاعر الأول فى العصر الجاهلى، وتلاه نظيره فى العصر الأموى؛ فما من ميت رئيس قبيلة أو أمير أو قائد أو خليفة يموت إلا ترى الشعراء ممن يتصلون إليه بـــسبب يدبجون القصائد فى رثائه، كما دبجوا أمثالها فى مديحه حال حياته ابتغاء نواله؛ من هنا كان الرثاء أصدق من المديح فى الأعم الأغلب لعدم توافر هذا الهـــدف وهو صلة الممدوح وعطاؤه.

ثم يأتى العصر العباسى، فنجد أنه قد "نشط الشعراء فـــى الرثـــاء نـــشاطاً واسعاً؛ إذ لم يمت خليفة ولا وزير ولا قائد مشهور إلا أبنوه تابيناً رائعـــاً، وقـــد صوروا فى القواد بطولتهم ومحنة الأمة والجيوش فى وفاتهم، وكيف ملأ موتهم القلوب حسرة وفزعاً. وحقاً رثاؤهم يفيض بالحزن واللوعة، ولكنه مع ذلك يكتظ بالحماسة والقوة وتمجيد بطولتهم تمجيداً يضرم الحمية فى نفوس الشباب للـــدفاع عن العرين حتى الموت، دفاعاً يقوم على أساس البأس والبسالة والبطولة، ومـــن ذلك رثاء "أبى تمام" "لمحمد بن حميد الطوسى" الذى سقط فـــى ميـــدان القتـــال عزيزاً كريماً يقاتل جنود "بابك الخرمى" زمن المأمون، وحزنـــت الأمـــة حزنـــاً عميقاً لموته؛ يقول "أبوتمام"[١]:

أصم بك الناعى وإن كـــان أســـمعا وأصبح مغنى الجود بعـــدك بلقعـــا

(١) أبوتمام هو حبيب بن أوس الطائى الشاعر المشهور، ولد فى جاسم من قـــرى حـــوران سنة ١٩٠هـــ، وتوفى بالموصل سنة ٢٣١هـــ.

وفيها يقول[١]: (من الطويل)

فتى كلما ارتاد الشجاع من الــردى مفراً غداة المأزق ارتــاد مــصرعا

فإن ترم عن عمر تدانى به المــدى فخانك حتى لم تجــد فيــه منزعــا

فما كنت إلا السيف لاقــى ضــريبة فقطعهــا ثــم انثنــى فتقطعــا

ومن هذا اللون أيضاً رثاء "منصور النمرى" يؤبن "مزيد بن مزيد الشيبانى" الذى فتك بخوارج الموصل فتكة لم تقم لهم بعدها قائمة؛ يقول:

وإن تك أفنتــه الليــالى وأوشــكت فــإن لــه ذكــراً ســيفنى الليــاليــا

ومنه أيضاً رثاء "على بن الجهم" "عبدالله بن طاهر"[٢] بــن الحــسين ابــن مصعب الخزاعى[٣] وكان من أشهر الولاة فى العصر العباسى، ولى الشام مدة، ونقل إلى مصر سنة ٢١١هـ فأقام سنة، ونقل إلى الدينور، ثــم ولاه "المــأمون"

---

(١) انظر: العصر العباسى الأول ص:١٧٠، ١٧١ د. شوقى ضيف دار المعارف ط تاسعة سنة ١٩٨٦م.

(٢) "عبدالله بن طاهر" ولاه المأمون مصر وأعطاه مالها العام خراجها وضــياعها، فوهبــه كله وفرقه فى الناس، وقد لهج الشعراء فيها بمديحه وفى مقدمتهم معلى الطــائى ولــه يقول:

لو أصبح النيل يجرى ماؤه ذهبا لما أشرت إلى خزن بمثقال

تفك باليسر كف العسر من زمن إذا استطال على قوم بإقلال

وما بثثت رغيل الخيل فى بلــد إلا عصفن بأرزاق وآجــال

(٣) انظر: العصر العباسى الأول ص(٣٣٤) د. شوقى ضــيف دار المعــارف ط٩ ســنة ١٩٨٦م، والأغانى طبعة دار الكتب جـ١٢/١٠٢.

خراسان، واستمر إلى أن توفى بنيسابور سنة ٢٣٠هـ؛ يقول "ابن الجهم"[١]:

(من الخفيف)

أى ركن وهى من الإسلام ... أى يوم أخنى على الأيام
جل رزء الإمام عن كل رزء ... أدركته خواطر الأوهام
سلبتنا الأيام ظلاً ظليلاً ... وأباحت حمى عزيز المرام
يا بنى مصعب حللتم من النا ... س محل الأرواح فى الأجسام
فإذا رابكم من الدهر ريب ... عم ما خصكم جميع الأنام
انظروا هل ترون إلا دموعاً ... شاهدات على قلوب دوام
من يداوى الدنيا ومن يكلأ الملـ ... ـك لدى فادح الخطوب العظام
نحن متنا بموته وأجل الـ ... ـخطب موت السادات والأعلام
لم يمت والأمير طاهر حى ... دائم الانتقام والإنعام
وهو من بعده نظام المعالى ... وقوام الدنيا وسيف الإمام

رثاه بما كان فيه من صفات جعلته قائداً مسلماً ووالياً أميناً على رعيته؛ فيوم أن مات كأن ركناً من الدين قد هوى؛ فقد كان حازماً فى حدود الله قائماً بالعدل والقسطاط؛ أمنت الرعية فى ولايته فكان ظلاً ظليلاً لهم، لقد جل خطبهم فيه عن كل خطب، وعظم رزء والده وخليفته عن كل رزء تتصوره العقول، وما ذاك إلا لأن بنى مصعب الخزاعى قد حلوا من الناس محل الروح فى الجسد؛ فالمصيبة واحدة، والخطب جلل ومشترك فما خصهم منه عم كل الناس، والدليل هذه الدموع الغزار التى فى عيون الناس وقد شهدت على حزن وألم

(١) انظر: الديوان ص (٢١٤).

عميق ألم بهم يوم فقد هذا العزيز، فقد ماتوا بموته؛ لأن أعظم المصائب على الإطلاق موت السادة والقادة والأعلام؛ فهم مصابيح الهدى ورعاة الأمم، ثم يعود الشاعر ويبث الأمل من جديد فى قلوبهم ليصبروا على ما ألم بهم من خطب فادح ومصيبة كبيرة؛ فينفى موته وغيابه عنهم ما دام الأمير "طاهر" أبوه حياً بينهم يؤدى دوره فى حياتهم؛ فهو قوام الدنيا وسيف الإمام.

وشاع فى هذا العصر بكاء الرفقاء والأصدقاء، بكاء يفجر الحزن فى النفس، لما يصور من شقاء الأصدقاء بموت رفاقهم، وكيف يصطلون بنار الفراق المحرقة، من مثل قول "بشار" فى ندب أحد أصدقائه من الزنادقة[1]:

اشرب على تلف الأحبة إننا ... جزر المنية ظاعنين وخفضا
ويلى عليه وويلتى من بينه ... كان المحب وكنت حباً فانقضى
مذ ذقت ألفته وذقت فراقه ... فوجدت ذا عسلاً وذا جمر الغضا

ومن ذلك قول "على بن الجهم" فى "أبى تمام" صديقه يرثيه:

غاضت بدائع فطنة الأوهام ... وعدت عليها نكبة الأيام
وغدا القريض ضئيل شخص باكياً ... يشكو رزيته إلى الأقلام
وتأوهت غرر القوافى بعده ... ورمى الزمان صحيحها بسقام
أودى مثقفها ورائض صعبها ... وغدير روضتها أبوتمام

يرثى فيه فطنته التى تفجرت عن بديع شعره وروعة أدبه، وكيف عدت عليها الأيام فاختطفه الموت فأصبح الشعر بعده هزيلاً ضعيفاً حزيناً يشكو

(١) انظر: ص(١٧٣) العصر العباسى الأول د. شوقى ضيف دار المعارف ط تاسعة سنة ١٩٨٦م.

مصيبته فيه؛ فقد رميت القوافى من بعده فى مقتل فاعتل صحيحها وكثر ضعيفها، لقد كان "أبوتمام" مثقفاً لها ومروضاً لصعبها وغديراً لروضتها؛ فابن الجهم ينطلق فى رثائه كما ينطلق فى مديحه من دور المرثى والممدوح فى حياة أمته أديباً كان أو خليفة أو قائداً؛ لا من صفات خاصة هى فيه أو يبغى من ورائها مأرباً دنيوياً، وانظر فى قول بشار السابق فقد بكى صديقه بكاء حاراً لأنه كان محباً له وصديقاً، فلما جزرته المنية أصابته بالويل والثبور، وقد خبره فوجده فى حياته كان عسلاً فلما مات كان ناراً محرقة أصابت كبده. كلها صفات خاصة مشتركة بين الصديقين لا تمت للحياة العامة وللمجتمع بصلة، وبها يشار إلى بشار بالبنان ويشتهر وتسير بشعره الركبان، أما "على بن الجهم" فقد خانته الأيام، وطوت شعره الشهور والأعوام بسبب ما لاقاه من أعداء الإسلام الذين تسببوا فى حبسه حيث السجن والظلام بعد أن كان مغرداً على الأغصان محبوباً من الأصدقاء والأقران، لولا أنها حكمة الرحمن التى قضت عليه ذلك الامتحان فصبر وصابر حتى فك الله أسره وخرج سليماً معافى من حبسه فى خراسان بعدها توجه إلى بغداد، ولم يذهب إلى سامراء حيث المتوكل، وتنكر له الناس بعد أن كانوا يتوسلون به عند الخليفة؛ فلم تعد له تلك المنزلة التى كانت له عند الخليفة، وازداد رأيه سوءاً فى الناس والحياة، ومن قصائده فى هذه المدة ميميته التى يقول فيها[1]:

وأنكر إغفال العيون مكانه ... وقد كن من أشياعه حيث يمما
عزاء عن الأمر الذى فات نيله ... وصبراً إذا كان التصبر أحزما

(١) انظر: الديوان ص (١٩٩).

تحول هذا إلى السخر من الحياة والناس، فصاحب أهل الفتوة فـــى بغـــداد يتلهى معهم بالاختلاف إلى بيوت القيان؛ يقول[1]:

نزلنا بباب الكـــرخ أطيـــب منـــزل على محسنات من قيـــان المفـــضل

واستمر على ذلك سبع سنين حتى علم بمقتل "المتوكـــل" ســـنة ٢٤٧هـــــ، فرثاه بقصيدة طويلة لم يرث "المتوكل" بمثلها تفجعاً وصدق لهجة، ونـــسى مـــا حدث منه إقصاء وحبساً ومصادرة أموال وتقييداً ونفياً وصـــلباً؛ وفيهـــا يقـــول:

(من الطويل)

وســـارية ترتـــاد أرضـــاً تجودهـــا شغلت بها عينـــاً قلـــيلاً هجودهـــا
أتتنا بهـــا ريـــح الـــصبا وكأنهـــا فتـــاة تزجيهـــا عجـــوز تقودهـــا
تميس بها ميساً فلا هـــى إن ونـــت نهتها ولا إن أســـرعت تـــستعيدها
إذا فارقتهـــا ســـاعة ولهـــت بهـــا كـــأم وليـــد غـــاب عنهـــا وليـــدها
فلمـــا أضـــرت بـــالعيون بروقهـــا وكادت تـــصم الـــسامعين رعودهـــا
وكادت تميس الأرض إمـــا تلهفـــاً وإمـــا حـــذاراً أن يـــضيع مريـــدها

وصف سارية (سحابة) حملتها الرياح بما فيها من خير كـــادت مـــن ثقلـــه تلمس الأرض لتضعه عليها، وقد سطعت بروقها وهى قادمة وصمت رعودهـــا الآذان مسرعة لأنها رأت أن الثرى بحاجة ماسة إليها، وقمم الجبال فـــى طلبهـــا مشوقة وقد عمت بخيرها العراق وأهله، وأغاثت السهل والجبل، وأفاضت الخير والبركة، حتى هبت ريح عاتية، فذهبت بها أحوج ما يكون الناس إليها "هكذا بدأ قصيدته، ثم كان هذا الرمز الذى أشار به إلى أيام "المتوكل" التى عمـــت النـــاس بالرخاء واليسر والبركة لم يشف أوامه فى التعبير عن فداحة الخطـــب، ومبلـــغ

(١) انظر: الديوان ص (١١٣).

حزنه، فتخلص من الكناية إلى التصريح، وبكى الخليفة أحر بكاء، وأنكر على القتلة الباغين، وشنع على رجال الدولة الذين لم يدافعوا عن الخليفة الشهيد"[١]، يقول:

فلما اقتضاها ليلة الروع حقه ... جرت سنحاً ساداتها ومسودها
وباتت خبايا كالبغايا جنوده ... وفى زورق الصياد بات عميدها
بلى وقف الفتح بن خاقان[٢] وقفة ... فأعذر مولى هاشم وتليدها
وجاد بنفس حرة سهلت له ... ورود المنايا حيث يخشى ورودها

لقد جاد "الفتح بن خاقان" بنفسه فداء للخليفة "المتوكل" فى حين فر "عبيدالله بن يحيى"[٣] واختبأ فى زورق الصياد الذى كان فى النهر، وكان من الأولى أن يدافع هو عن الخليفة فهو وزيره الذى اختاره وقربه منه ووثق به، يقول:

وفر عبيدالله فيمن أطاعه ... إلى سقر الله البطىء خمودها
ولم تحضر السادات من آل مصعب ... فيغنى عنه وعدها ووعيدها
ولو حضرته عصبة طاهرية ... مكرمة آباؤها وجدودها
لعز على أيدى المنون اخترامه ... وإن كان محتوماً عليه ورودها
أولئك أركان الخلافة إنما ... بهم ثبتت أطنابها وعمودها

---

(١) انظر: الديوان ص(١٩).

(٢) الفتح بن خاقان بن عرطوج من أبناء الملوك من الأتراك اتخذه المتوكل أخاله، وكان يصدر عن رأيه ولا يصبر عنه. الديوان ص(١١٥).

(٣) عبيدالله بن يحيى بن خاقان وزير المتوكل استكتبه سنة ٢٣٦هـ، ولما قتل المتوكل كان عبيدالله يلى الوزارة. الديوان ١١٥، (الطبرى ٤٤/١١، ٦٦).

كما أشاد بدور "الفتح بن خاقان" ودفاعه عن الخليفة حتى ذاقا الموت معاً، وأدار اللوم على "عبيدالله بن يحيى" ونوه بدور آل مصعب وهم بنو "عبدالله بن طاهر" بن الحسين بن مصعب الخزاعى أمير خراسان وابنه طاهر بن عبدالله ولى خراسان بعده، وابنه عبيدالله بن طاهر ولى شرطة بغداد؛ فهم أركان الخلافة بهم ثبتت وعلى أكتافهم قامت؛ يعود فيستنكر مقتل "المتوكل" على هذا النحو؛ يقول[1]:

أيقتل فى دار الخلافة جعفر ... على فرقة صبراً وأنتم شهودها
فلا طالب للثأر من بعد موته ... ولا دافع عن نفسه من يريدها
بنو هاشم مثل النجوم وإنما ... ملوك بنى العباس منهم سعودها
بنى هاشم صبراً فكل مصيبة ... سيبلى على طول الزمان جديدها
عزيز علينا أن نرى سرواتكم ... تفرى بأيدى الناكثين جلودها
ولكن بأيديكم تراق دماؤكم ... ويحكم فى أرحامكم من يكيدها
ألهفاً وما يغنى التلهف بعدما ... أذلت لضبعان الفلاة أسودها
عبيد أمير المؤمنين قتلنه ... وأعظم آفات الملوك عبيدها
أما والمنايا ما عمرن بمثله الـ ... ـقبور وما ضمت عليه لحودها

قتل "المتوكل" خليفة المسلمين فلم يجد ناصراً يدفع عنه القتل ومن حاول قتل معه، ولم يجد أيضاً بعد مقتله من يطلب ثأره؛ إنه من قوم هم النجوم الزاهرة، ولا بد من الصبر على هذه المصيبة التى عمت المسلمين فعزيز عليهم أن يروا بنى العباس تراق دماؤهم بأيديهم هم؛ لقد تسلط العبيد فتحكموا، ثم قتلوا وما آفة الملوك سوى العبيد؛ فقد قتلنه كالنساء غيلة وغدراً، ولم يقتلوه كالرجال

(١) انظر: الديوان ص (١١٦).

وجهاً لوجه فماذا يغنى التلهف والحسرة بعدما أذلت الأسود وسقطوا صرعى الفلاة التى سودت الضبعان.

ثم ينادى "المتوكل" مؤبنا إياه؛ فيقول:

فيا ناصر الإسلام غرك عصبة ... زنادقة قد كنت قبل أذودها
وكنت إذا أشهدتها بى مشهداً ... تطأ من عاديها وذل عنيدها
فلما نأت دارى ومال بك الهوى ... إليها ولم يسكن إليك رشيدها
أشاع وزير السوء عنك عجائباً ... يشيد بها فى كل أرض مشيدها
وباعد أهل النصح عنك وأوغرت ... صدور الموالى واستسرت حقودها
فطل دم ما طل فى الأرض مثله ... وكانت أمور ليس مثلى يعيدها

لقد ظل الرجل على وفائه للخليفة محباً له ومؤيداً رغم ما حدث له منه، وهاهو يغضب لمقتله ويحزن على فقده، وهو المبعد الطريد البعيد عنه، ولو أراد أن يشعلها ناراً حامية لقال فيه ما لم يقله راث ولطالب بثأره بقصائد تصب ناراً ولهيباً على رءوس القتلة ومغتصبى الخلافة، ولكنه صرف همه إلى فقيده ناصر الإسلام، فكم شهد مشاهد معه ومجالس حتى غره هؤلاء الزنادقة وأوغروا صدره عليه فأبعده عنه، وانفرد به وزير سوء أخذ يباعد بينه وبين أهل النصح والرشاد حتى انصرفوا عنه فسكن الحقد قلوب الموالى فما كان من مخرج سوى القتل وسفك الدماء، وكل هذه أمور صار من الصعب إصلاحها.

نقلت هذه الحادثة وتلك الفاجعة والمصيبة الكبرى نفس الشاعر إلى طور جديد من الحياة رهيب، كان قبلها سيئ الرأى بالناس وحياتهم، وكان يعالج ذلك بالسخرية منهما، ولكن بعد مقتل "المتوكل" بتدبير "المنتصر" يئس من الحياة ومن الناس، وبدأ يلتمس السبيل للتخلص منهما. ولكن كيف؟ ومتى؟.... بالجهاد ولو

بلغ الستين من عمره. لقد خرج "على بن الجهم" فى قافلة قاصداً الثغر، فلما كانوا فى "خساف" خرج عليهم نفر من الأعراب الكلبيين، فهرب من كان فى القافلة من المقاتلة، وثبت "على" فقاتلهم قتالاً شديداً، ولم يحظوا بشيء منه؛ وفى ذلك يقول:

صبرت ومثلى صبره ليس ينكر وليس على ترك التقحم يعذر

فلما كان من الغداة خرج على القافلة منهم خلق كثير، فتسرعت إليهم المقاتلة، وخرج "على" فيهم فأصابته طعنة قتلته، فاحتمله أصحابه وهو ينزف دمه، فلما أحس بالموت جعل يقول:

أزيد فى الليل ليل أم سال بالصبح سيل
يا إخوتى بدجيل وأين منى دجيل

فأبكى كل من كان فى القافلة، ومات مع السحر، ووجد معه رقعة حين نزعت ثيابه بعد موته فيها قوله:

وا رحمتا للغريب فى البلد النا زح ماذا بنفسه صنعا
فارق أحبابه فما انتفعوا بالعيش من بعده وما انتفعا

ودفن فى ذلك المنزل على مرحلة من حلب"[1].

وقد رثاه جماعة من الشعراء منهم أبوصاعد[2] فقال:

أريقى الدمع واجتنبى الهجوعا وصونى شمل وجدك أن يضيعا

---

(١) انظر: الديوان ص (١٨٣)، كان منزل على بن الجهم فى شارع دجيل ببغداد.

(٢) هو أبوالقاسم صاعد بن أحمد بن عبدالرحمن بن محمد الأندلسى القرطبى صاحب كتاب طبقات الأمم (ت ٤٦٢هـ)، مروج الذهب للمسعودى جـ٢/٢٧٥.

وقـــولى إن كهـــف بنـــى لـــؤى غـــدا بالـــشام منجـــدلاً صـــريعا
عزاء يـــا بنـــى جهـــم بـــن بـــدر فقـــد لاقيـــتم خطبـــاً فظيعـــا
أمـــا والله لـــو تـــدرى المنايـــا بمـــا لاقيـــتم لبكـــت نجيعـــا
ثـــوى كهـــف الأرامـــل واليتـــامى ومـــن كـــان الزمـــان بـــه ربيعـــا
فتى كان الـــسهام علـــى الأعـــادى وليثـــاً دون حادثـــة منيعـــا[1]

ومن خصائص هذا الغرض عند ابن الجهـم أنـه يبـدأ بعـض قـصائده بالاستفهام التعجبى كى يثير النفس ويوقظ الذهن ليرى فداحة الخطب الذى نـزل والمصيبة التى ألمت بالناس لفقد حبيب لديهم.

وقد يؤثر الشاعر- أحياناً- أسلوب الاستفهام ليبرز مـن خلالـه عواطفـه ومشاعره؛ كأن يقصد به الرجاء، أو التحسر، أو الإنكار؛ أو التعجب، أو الحيرة، أو التردد، أو غير ذلك من المعانى المجازية؛ مثل قول الشاعر:

وآلمنـــى وآلـــم كـــل حـــر سؤال الدهر: أيـــن المـــسلمونا؟[2]

ومثال ذلك قول "على بن الجهم" فى ""عبدالله بن طاهر"" أشهر الولاة فـى العصر العباسى يرثيه:

أى ركـــن وهـــى مـــن الإســـلام أى يـــوم أخنـــى علـــى الأيـــام!؟

لقد وهى ركن ركين من أركان الإسلام بموته، وحلت مصيبة كبرى علـى الأيام التى يحياها الناس.

---

(١) انظر: الديوان ص (٢١).

(٢) انظر: دراسات فى النص الأدبى (العصر الحديث) ص (٨٠)، د/محمد عارف محمود حسين ود/حسين على محمد مطابع الوفاء بالمنوفية ١٤٢١هـ- ٢٠٠١م.

ومثله يرثى نفسه بعد أن طعن بسهم الأعداء؛ قال وهو يموت:

أزيـــد فـــى الليـــل ليـــل أم ســـال بالليـــل ســـيل!
يـــا إخـــوتى بـــدجيل وأيـــن منـــى دجيـــل!

وقد يورد الاستفهام الإنكارى طى قصيدة الرثاء لإثارة الذهن، وللتعبير عن استنكاره ما حدث ومثاله قوله يرثى المتوكل:

أيقتـــل فـــى دار الخلافـــة جعفـــر على فرقة صبراً وأنـــتم شـــهودها؟

وقوله:

ألهفاً ومـــا يغنـــى التلهـــف بعـــدما أذلت لـــضبعان الفـــلاة أســـودها؟

وقوله يرثى ""عبدالله بن طاهر"" فى القصيدة المشار إليها سلفاً:

من يداوى الدنيا ومن يكلأ الملـــــ ـــك لدى فادح الخطوب العظـــام؟

كما يلاحظ أنه يضم إلى الرثاء بالصفات العامة صفات خاصـــة بـــالمرثى ليعلن أن للمرثى دوراً مؤثراً فى حياة أمته لصفات هى فيه عليها نشأ وترعرع؛ فيقول فى "عبدالله بن طاهر":

ســـلبتنا الأيـــام ظـــلاً ظلـــيلاً وأباحـــت حمـــى عزيـــز المـــرام
يا بنى مـــصعب حللـــتم مـــن النـــا س محـــل الأرواح فـــى الأجـــسام
فـــإذا رابكـــم مـــن الـــدهر ريـــب عـــم مـــا خـــصكم جميـــع الأنـــام

ويقول فى "الفتح بن خاقان" الذى حضر مقتل "المتوكل" وحاول منع القتلـــة وصدهم عن المتوكل؛ بل دافع عنه حتى قتل معه:

بلى وقف الفتح بن خاقـــان وقفـــة فأعـــذر مـــولى هاشـــم وتليـــدها

وجـــاد بـــنفس حـــرة ســـهلت لـــه ورود المنايا حيث يخشى ورودهـــا

ويشيع فى رثائه الحديث عن الصبر والتصبر والموت، مثل قوله:

بنى هاشـــم صـــبراً فكـــل مـــصيبة سيبلى على طول الزمـــان جديـــدها
عزيز علينـــا أن نـــرى ســـرواتكم تفـــرى بأيـــدى النـــاكثين جلودهـــا

ويقول فى "عبدالله بن طاهر":

نحن متنـــا بموتـــه وأجـــل الـــــ ـــخطب موت الـــسادات والأعـــلام

ملحوظات فنية عامة:

١- يلحظ الدارس لشعر "على بن الجهم" أن مطالع قصائده فى معظمها خال من التصريع؛ ومنها على سبيل المثال قصيدة: "هذا العقيق"؛ وفيها يقول:

هذا العقيق فعد أيدى العيس عن غلوائها

وهو أول بيت فيها، والبيت المصرع هو الذى غيرت عروضه روياً ووزناً لتلحق بوزن الضرب، من أجل المجانسة بين شطرى البيت الواحد فى مطلع القصيدة، ليصبح العروض مشابهاً للضرب وزناً وقافية، كما هو الحال فى المقفى، غير أن الموافقة تتم بتغيير فى العروض إما بزيادة، كقول الشاعر من الطويل:

قفانبك من ذكرى حبيب وعرفان وربع خلت آياته منذ أزمان

حق عروضه أن تجئ على وزن "مفاعلن"، لكنها غيرت بالزيادة إلى "مفاعيلن" لتلحق بوزن الضرب، لأن وزنه "مفاعيلن". وقد يكون التغيير بالنقص كقول امرئ القيس من الطويل:

أجارتنا إن الخطوب تنوب وإنى مقيم ما أقام عسيب

وزن عروضه "فعولن"، حقها أن تجئ على وزن "مفاعلن" لكنها غيرت بالنقص لتلحق بوزن الضرب "فعولن"(١).

ومن قصائد "على بن الجهم" التى خلت من هذا التصريع قصيدة: "قالت حبست"؛ يقول فى أول بيت فيها: (من الكامل)

---

(١) انظر: موسقى أوزان الشعر العربى دراسة تطبيقية ص(٥٧) د. سيد مرسى أبوذكرى طبعة سنة ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م رقم الإيداع بدار الكتب المصرية٢٠٠٢/٣٩٢٥م.

قالت حبست فقلت ليس بضائر حبسى وأى مهند لا يغمد

ومنها قصيدة: "لم ينصبوا بالشاذياخ"، ويقول فى أول بيت فيها:

(من الكامل)

لم ينصبوا بالشاذياخ صبيحة الإ ثنين مغموراً ولا مجهولا

إن دل هذا على شىء؛ فإنما يدل على عدم تعمده كثيراً من الصنعة فى شعره، وهذا شأن المطبوعين من الشعراء؛ فكثيراً ما يغفلون التصريع لاهتمامهم بإبراز المعانى فى ثوب قشيب؛ فالمدار عندهم فى الأعم الغالب على المعنى لا على الصنعة.

٢- كما يلحظ أنه أقل شعراء عصره صنعة، لا تكاد تجد فى شعره شيئاً من المحسنات اللفظية، وإذا وجدت فعن غير قصد منه؛ ومن ذلك قوله فى مدح "المعتصم":

هى الأيام تجمع بعد بعد وتفجع بعد قرب والتئام

فهذه مقابلة جميلة بين حالتى الأيام؛ فمرة تجمع الأحباب بعد تفرقهم وبعدهم، وأخرى تفجعهم بالبعد والتفرق، ولم يحمل البيت محسناً لفظياً واحداً. سوى قوله: بعد بعد؛ حيث جانس بين الظرف والمصدر.

وقوله فى "المتوكل":

ولا عار أن زالت عن الحر نعمة ولكن عاراً أن يزول التجمل
وما المال إلا حسرة إن تركته وغنم إذا قدمته متعجل

فليس العار فى زوال النعمة عن الحر، إنما العار فى زوال التجمل مقابلة جميلة وكذلك المال يكون حسرة إن ترك دون إنفاق، ويكون مغنماً إذا أنفق فى

وجوه الخير، وذلك كله خال من المحسنات اللفظية كالجناس مثلاً والسجع وغيرها.

ومنه قوله فى "المتوكل" يمدحه:

فردهم طوعاً وكرهاً إلى أن عرفوا الحق الذى أنكروا
ووافقوا من بعد ما فارقوا وأقبلوا من بعد ما أدبروا

نجد الطباق واضحاً فى قوله: "طوعاً"، "كرهاً"، وفى قوله: "عرفوا"، و"أنكروا"، "وافقوا"، "فارقوا". وقوله: "أقبلوا"، "أدبروا"، وليس فيهما شىء من المحسنات اللفظية.

وقوله يفخر بقومه:

أولئك آل الله فهر بن مالك بهم يجبر العظم الكسير ويكسر
هم المنكب العالى على كل منكب سيوفهم تفنى وتغنى وتفقر

ففيه نجد الطباق فى قوله: "يجبر"، "يكسر" وفيه نجد جناساً بين الكسير ويكسر، وبين "تفنى وتغنى"، وفى قوله: "تغنى"، "تفقر"، طباق. "ولم يتعمده؛ بل جاء عفواً فتم به المعنى، بأيسر الطرق وأوضح السبل، وهذا شأنه فى شعره كله؛ بله المدح والهجاء والفخر والرثاء.

وقوله فى "المتوكل" يمدحه:

غير الليالى بادئات عود والمال عارية يفاد وينفد
ولكل حال معقب ولربما أجلى لك المكروه عما يحمد

فالطباق واضح بين قوله: "بادئات"، "عود"، وفى قوله: "يفاد"، أى يجمع و"ينفد"، أى يضيع ويصرف وينتهى. وفى قوله: "المكروه"، "يحمد".

وفى قوله:

كـــم مـــن عليـــل تخطـــاه الـــردى فنجـــا ومـــات طبيبـــه والعـــود

طابق بين قوله: "نجا"، "مات"، ومعلوم أن هـذا اللـون مـن المحـسنات المعنوية طباقاً كان أو مقابلة يؤكد المعانى ويقويها ويزيدها وضوحاً وثباتـاً فـى ذهن المتلقى؛ فالضد يظهره حسن الضد عند وروده على الذهن فهـو "يعكـس الانفعالات والأحاسيس، دون قصد أو تعمد. وتبدو قيمته فى النص الأدبـى لمـا يثير من مشاعر المواقف المضادة، ويظهره من عواطف خلال الروابط البعيدة، مما يؤدى إلى إيقاع صوتى له رنين موسيقى يثير القارئ، ويوقظ نفسه، ويعمـق شعوره بالمعنى، من خلال المجاورة بين الضدين"(١).

٣- ونجد أيضاً أنه مقتـصد فـى تـشبيهاته، مقـل فـى اسـتعاراته إلا إذا اقتضى المعنى ذلـك فيوضـح بالتـشبيه، ويـزين بالاسـتعارة؛ ليـصل بالمعنى درجة عالية من الصفاء والنقاء؛ ومن ذلك قوله:

ولـــو حـــضرته عـــصبة طاهريـــة مكرمـــة آباؤهـــا وجـــدودها
لعز على أيـدى المنـون اختـرامـه وإن كان محتومـاً عليـه ورودهـا
أولئـــك أركـــان الخلافـــة إنمـــا بهـــم ثبتـــت أطنابهـــا وعمودهـــا

استعارة مكنية جميلة فى قوله: "لعز على أيدى المنون"؛ ومن يفر من أيدى المنون التى سلطت عليه، فمن الحتم أن تدركه وفيه إبراز للمعنى فـى صـورة محسوسة تراه العين أو تكاد.

وهذا مثل قول "أبى ذؤيب الهذلى":

(١) انظر: السابق ذاته ص (٢٠٧).

وإذا المنيـــة أنـــشبت أظفارهـــا ألفيـــت كـــل تميمـــة لا تنفـــع

فالشاعر قد صور المنية حيواناً مفترساً، ولما كانت المنية تقضى على الإنسان إذا نزلت به صلح أن يقال: أنشبت فيه أظفارها شأنها فى ذلك شأن الحيوان المفترس. وجعل "على بن الجهم" للمنون أيدى تخترم الإنسان حين يأتى أجله المحتوم حتى لو لم يكن لها أظفار تنشبها فيه فأتى إلى المعنى من أيسر السبل عن طريق الاستعارة المكنية وإنما قبلت الاستعارتان لأن كلا منها جاء على ما يتطلبه عمود الشعر العربى من ملاءمة المستعار للمستعار له ومن تقاربهما ومن تحقق الصفات الأربعة التى ذكرها "أبو هلال العسكرى"(١).

وفى قوله: "بهم ثبتت أطنابها وعمودها"، استعارة تصريحية حيث شبه الخلافة بدار لها عمد وطنب بها ثبتت على مر السنين، وكان أبناء طاهر هم عمدها وأركانها؛ وفى ذلك ترشيح رائع للاستعارة وضح به منزلة هؤلاء القوم من الخلافة وقربهم من الخليفة.

ويقول أيضاً:

بنو هاشـــم مثـــل النجـــوم وإنمـــا ملوك بنى العباس منهـــا ســـعودها

فقد شبه بنى هاشم بالنجوم الزهر التى تنير للناس سبيلهم فى الليل المظلم غاب عنه القمر، وشبه بنى العباس من بينهم بأضوأ وأقوى هذه النجوم؛ فهم صفوة بنى هاشم خلصوا الناس من ظلم بنى أمية وساروا بهم على درب الهدى والعدل والإيمان.

ويقول أيضاً:

---

(١) انظر: عمود الشعر العربى ص (٢٠٤) د/عبدالفتاح على عفيفى مطبعة السعادة طبعة أولى ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

هل كـــان إلا الليـــث فـــارق غيلـــه فرأيتـــه فـــى محمـــل محمـــولاً

حيث شبه نفسه وهو مصلوب بالليث ثم حذف المـشبه وذكـر مرشـحات للاستعارة الجميلة التى أدت المعنى المراد ليتم له الفخر بنفسه فى أرقى صـورة كما أراد منه. ومنه قوله أيضاً:

مـــا عابـــه أن بزعنـــه لباســـه فالسيف أهول مـــا يـــرى مـــسلولا

فهو السيف الذى لا يرى أهول ما يكون إلا إذا كان خارج غمـده ينـزل ويهوى على رءوس الأعداء يقطعها تقطيعاً، وفى التصريحية من الترشـيح مـا يؤدى إلى وضوح المعنى وتأكيده فى ذهن المتلقى، وبهذا يصل إلى ما أراد فـى مقام الفخر بنفسه.

ويقول أيضاً:

ســـلبتنا الأيـــام ظـــلاً ظلـــيلاً وأباحـــت حمـــى عزيـــز المـــرام
يا بنى مـــصعب حللـــتم مـــن النـــا س محـــل الأرواح فـــى الأجـــسام

يرثى "عبدالله بن طاهر" الذى كان حمى آمناً وظـلاً ظلـيلاً للنـاس، ثـم اختطفته المنون فسلبت الناس أمنهم وأباحت حماهم فعن طريـق المجـاز فـى الاستعارة الجميلة وصل إلى قلب المتلقى وعقله فعلم كيف كان المرثى بالنـسبة للناس جميعاً، وفى قوله: "حللتم من الناس محل الأرواح فـى الأجـسام" تـشبيه جميل وضح به منزلة هؤلاء الممدوحين فى قلوب الناس.

وقد يتعمد الصنعة فى شعره إذا دعت الحاجة لدرجة التكلف، فنجـده فـى رثائه "أباتمام الطائى" وكان صديقاً له؛ نجده يقول:

غاضـــت بـــدائع فطنـــة الأوهـــام وعـــدت عليهـــا نكبـــة الأيـــام

وغدا القريض ضئيل شخص باكياً يشكو رزيته إلى الأقلام
وتأوهت غرر القوافى بعده ورمى الزمان صحيحها بسقام
أودى مثقفها ورائض صعبها وغدير روضتها أبوتمام

استخدم طريق المجاز فى رثائه فأكثر من الاستعارات الغريبة من مثل: "غاضت بدائع فطنة الأوهام"، و"عدت عليها نكبة الأيام"، و"يشكو رزيته إلى الأقلام"، و"تأوهت غرر القوافى"، و"رمى الزمان صحيحها بسقام"، وأكثر من التشبيهات من مثل قوله: غدا القريض ضئيل شخص باكياً"، و"غدير روضتها"؛ وقد يكون لذلك التعمد سبب مقبول هو أنه فى مقام رثاء صديق شاعر كان له باع طويل فى الشعر ورائد مدرسة شعرية هى مدرسة الصنعة فى العصر العباسى؛ فناسب أن يلبسه رثاء خرج من جنس ما كان يقول وينظم؛ فيطابق قوله مقتضى الحال رثاء، ومقتضى المقام فناً.

٤- نجده أيضاً يستعمل أسلوب الحوار ليثير ذهن المتلقى فيستقر المعنى فيه، فى مثل قوله[١]:

قالوا: أتاك الأمل الأكبر وفاز بالملك الفتى الأزهر
واكتست الدنيا جمالاً به فقلت: قد قام إذاً جعفر

فالحوار فى قالوا، وقلت، يثير فى الأسلوب حركة، وفى الذهن انتباهاً لما يورد من معان لها من الأهمية ما لها عند الشاعر والمتلقى لشعره، فيحدث من التلاقى والتوافق بينهما الكثير؛ وبهذا يستقر المعنى وتطمئن النفس إليه.

ويقول أيضاً[٢]:

---

(١) انظر: الديوان ص(١٢٦).
(٢) انظر: الديوان ص(١٢٧).

وقائـــــل أيهمـــــا أنـــــور ... الـــشمس أم ســـيدنا جعفـــر
قلت: لقد أكبرت شـمس الـضحى ... جهـلاً ومـا أنـصفت مـن تـذكر
هـــل بقيـــت فيـــك مجوســـية ... فالـــشمس فـــى ملتهـــا تكبـــر
أم أنـــت مـــن أبنائهـــا عـــالم ... وزلـــــة العـــــالم لا تغفـــــر
فقـــل: معـــاذ الله مـــن هفـــوة ... قـــال: وهـــل يغلـــط مـــستخبر

ويقول أيضاً:

فـــى كـــل وقـــت نورهـــا ســـاطع ... وكـــل وصـــف دونهـــا يقـــصر
فقـــال: هـــل أكملهـــا قـــدره ... إذا بـــدا فـــى حلـــة يخطـــر

ويقول أيضاً:

قـــال: وأيـــن البحـــر مـــن جـــوده ... قلـــت: ولا أضـــعافه أبحـــر
البحـــر محـــصور لـــه بـــرزخ ... والجـــود فـــى كفيـــه لا يحـــصر
قال: وكيف البـأس عنـد الـوغى ... قلـــت: أتـــاك النبـــأ الأكبـــر

فالحوار واضح فى "قال"، و"قلت" حتى نهاية القصيدة التى مدح بها "المتوكل"، وكانت من أول ما قال فيه من الشعر لما فيها من شرح سيرة "المتوكل" لما استخلف.

ويشيع الحوار أيضاً فى قوله يمدح "المتوكل" أيضاً فى أشهر قصائده[1]: (خليلى ما أحلى الهوى وأمره).

---

(١) قصيدة الرصافية وبها- بل بقسم منها- اشتهر بين الأدباء ولا سيما المتأخرين؛ ففى أعلام الكلام ص(٢٣) قال ابن شرف القيروانى: "وأما "على بن الجهم" فرشيق الفهم... وله فى الغزل الرصافية، وفى العتاب الدالية، ولولم يكن له سواهما لكان أشعر الناس بهما" انظر: الديوان ص(١٣٥) وأعلام الكلام طبعة أولى ١٣٤٤هـ- ١٩٢٦م.

وفيها يقول:

وما أنس م الأشياء لا أنس قولهـا ... لجارتها: ما أولـع الحـب بـالحر
فقالت لها الأخـرى فمـا لـصديقنا ... معنى وهل فى قتله لك مـن عـذر
صليه لعل الوصل يحييـه واعلمـى ... بأن أسير الحب فى أعظـم الأسـر
فقالت: أذود النـاس عنـه وقلمـا ... يطيف الهـوى إلا لمنتهـك الـستر
وأيقنتـا أن قـد سـمعت فقالتـا: ... من الطارق المصغى إلينا وما ندرى
فقلت: فتى إن شئتما كـتم الهـوى ... وإلا فخـلاع الأعنـة والعـذر

صاغها على الحوار فجاءت الحركة واضـحة للعـين بـين الشخـصيات المتحاورة مما يعطى القصيدة لوناً من الحياة والحركة والروعة والرونق تـرى على أرض الواقع.

فحواره يبدأ مع خليليه وهذا لون من التجريد، ومن دلالات تجريد الشاعر من نفسه شخصاً آخر يخاطبه وقوع صراع بين النفس والعقل، أى بين الرغبـة فى شىء لداعية الهوى والرغبة عنه لداعية أخرى صارفة(١). ثم يتحول من ذلك إلى حوار حبيبته مع صديقتها من خلال حديثه عنهما وروايته لما حدث بينهمـا من حديث العشق والهوى، ويتحول إلى دخوله معهما فى الحـوار فـى "قلـت"، و"قالت"، و"صليه" و"أيقنتا"، و"هجينا"، "فما لصديقنا"، "فقالتا" حركة دائمة مستمرة وإبراز للشخصيات ودورها فى النص كأنه نص مسرحى يمثل ويراه النظـارة.

(١) انظر: ص(٩١) المعادل الموضوعى فى الشعر الجـاهلى د. كـاظم الظـواهرى، دار الهداية للطباعة والنشر والتوزيع ط أولى سنة ٢٠١٠م.

"والحوار هو الوسيلة الجمالية الناجمة لإبراز العواطف المضطربة والمتناقضة بين الحبيبين"[١].

٥- كما يقل فى شعره التقديم والتأخير، والحذف والتقدير، وما يقتضى إدامة النظر، وإعمال الفكر؛ بل كان يتطلع إلى تأدية المعنى على أوضح السبل وأيسرها، فقد كان بصيراً بحدود الكلام، ومن أظهر خصائص شعره الطبع والجزالة.

٦- ومن يطالع قصائده قبل الحبس وبعده يجده فى شعر الشباب أشبه بشعر المطبوعين من العرب، لحن شج، وعاطفة جياشة، وانتقال سريع من معنى إلى آخر، ومثال ذلك قصيدته "الميمية" التى قالها فى "المعتصم"، وأولها:

متى عطلت رباك من الخيام سقيت معاهدا صوب الغمام[٢]

فلما اكتهل صار أميل إلى تسلسل المعنى وتوليده والانتصاف منه؛ فقصيدته "الدالية" فى الحبس وحدة تامة متسلسلة، وكذلك أكثر قصائده التى قالها فى "المتوكل" أو فى زمانه.

والجزل المحكم من شعره أشبه بشعر فحول الجاهليين والمخضرمين؛ كزهير بن أبى سلمى والنابغة الذبيانى والحطيئة، مثال ذلك قوله:

يعاقب تأديباً ويعفو تطولاً ويجزى على الحسنى ويعطى فيجزل
ولست ببحر أنت أعذب مورداً وأنفع للراجى نداك وأشمل

---

(١) انظر: ص(١٧١) عناصر الإبداع الفنى فى رائية أبى فراس د/محمد عارف محمود حسين مطبعة الأمانة، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

(٢) انظر: الديوان ص (٣٤).

وقوله:

ولا يجمـــع الأمـــوال إلا لبـــذلها كما لا يساق الهدى إلا إلى النحر[1]

٧- وما قاله من الشعر أيام محنته من أجود الشعر، وأحسنه ومنـــه قـــصيدته الدالية؛ فهى من القصائد الخالدة، لم يقل فى معناها مثلها، أبدع فى ابتكـــار معانيها وتسلسلها كما أبدع فى صوغها. وأولها قوله:

قالت حبست فقلـــت لـــيس بـــضائر حبـــسى وأى مهنـــد لا يغمـــد[2]

٨- نجده يتناول المعنى البعيد فيعرضه قريباً من الفهم، ويتـــصرف بـــالمعنى الواحد على عدة وجوه سلباً وإيجاباً فيحسن ويبدع، وخير دليل على ذلـــك أنه شبه نفسه بالسيف فى غمده، والأسد فى غيله، والبـــدر فـــى ســـراره، والشمس فى حجابها، والغيث فى غمامه، والنار فى أحجارها، والرماح فى كعوبها، وذلك فى قصيدته المشار إليها آنفاً؛ وفيها يقول:

قالت حبست فقلـــت لـــيس بـــضائر حبـــسى وأى مهنـــد لا يغمـــد
أو ما رأيـــت الليـــث يـــألف غيلـــه كبـــراً وأوبـــاش الـــسباع تـــردد
والـــشمس لـــولا أنهـــا محجوبـــة عن ناظريـــك لمـــا أضـــاء الفرقـــد
والبـــدر يدركـــه الـــسرار فتنجلـــى أيامـــــه وكأنـــــه متجـــــدد
والغيث يحصره الغمام فمـــا يـــرى إلا وريقـــــه يـــــراح ويرعـــــد
والنـــار فـــى أحجارهـــا مخبـــوءة لا تصطلى إن لـــم تثرهـــا الأزنـــد
والزاعبيـــــة لا يقـــــيم كعوبهـــــا إلا الثقـــــاف وجـــــذوة تتوقـــــد

(١) انظر: السابق ص (٣٥).
(٢) انظر: الديوان ص (٨٨).

فمهما ظل السيف مشرعاً فى وجوه الأعداء يصيبهم فى مقتل ستنجلى المعركة عن نصر مبين بعده يعود السيف إلى غمده، والأسد من عادته أنه يألف عرينه كبراً؛ فهو السيد المخدوم من جميع الحيوانات التى تجرى هنا وتسير هناك، وهذه الشمس محجوبة عن الأنظار غير مسلطة عليها لولا ذلك لما أضاء الكون ولما رأى الناس الأشياء، وهذا البدر لولم يمر عليه السرار أى أيام اختفائه لما عاد مضيئاً كما كان، ولما تم للناس سرورهم به؛ فهو متجدد لهم دائماً. وهذا الغيث الذى يروى الأرض فتدب فيها الحياة من جديد لولا أن الغمام يحمله ويحتويه ويأتى به لما نزل على الأرض، وهذه النار لولا أن الأحجار ضمتها إليها وحافظت عليها، ولولا أن الأزند لم تثرها لن تصطلى فهى مكنونة فيها حتى تثار فتقوم بها مصالح الناس، وهذه السهام التى تصيب جسوم الأعداء لولم تقوم كعوبها الثقاف الحديدية المحماة فى النار لما كان لها تأثير ولما تمت لها فائدة؛ فقد شبه نفسه وهو فى حبسه بكل هذه الأشياء ليعرف الناس من هو، ولتطمئن صاحبته التى سألته؛ فقالت: حبست، وليزول تعجبها من حبسه؛ فمهما طال حبسه هناك فستكون له عودة وظهور، لم يصبه يأس ولا هلع ولا قنوط، ولم يتغير لديه إحساس ولم يتبدل رأيه فى خلافة بنى العباس، ولم يغضب من "المتوكل" الذى حبسه؛ فقد حبسه بناء على كيد أعدائه هو؛ فالذنب ذنبهم لا ذنب "المتوكل".

ومن ذلك أيضاً تشبيه نفسه عندما صلب بالشاذياخ وهو عريان، بالليث الذى فارق عرينه، والسيف الذى خرج من غمده، وبالبدر ليلة تمامه انقشع عنه الغمام وذلك فى قصيدته اللامية؛ وفيها يقول[1]:

(١) انظر: الديوان ص (١٨٥).

لم ينصبوا بالشاذياخ صبيحة الإ ... ثنين مغموراً ولا مجهولاً
نصبوا بحمد الله ملء عيونهم ... شرفاً وملء صدورهم تبجيلا
ما ازداد إلا رفعة بنكوله ... وازدادت الأعداء عنه نكولا
هل كان إلا الليث فارق غيله ... فرأيته في محمل محمولا
لا يأمن الأعداء من شداته ... شداً يفصل هامهم تفصيلا
ما عابه أن بزعنه لباسه ... فالسيف أهول ما يرى مسلولا
إن يبتذل فالبدر لا يزرى به ... أن كان ليلة تمه مبذولا

اتضحت لنا الآن صورة المصلوب بعد هذا التوضيح والتفصيل الرائع؛ فالمصلوب ليس شخصاً عادياً؛ بل هو الأسد فى هيبته يغادر عرينه فتلتفت إليه حيوانات الغابة ويلتفون حوله يحتفون به ويقدرونه حتى إذا التقى بأعدائه فهم فى خوف دائم لا يأمنون على أنفسهم من قوته وافتراسه، وهو السيف المسلول من غمده، ولا يسل السيف إلا ليهوى على رءوس الأعداء فيقضى عليها قضاء مبرماً، وهو البدر ليلة تمامه يظهر للناس يضئ لهم ليلهم المظلم فهم فى سرور دائم معه.

ومن ذلك- أيضاً- قوله فى المتوكل:

ومعتصمى الخلق للسيف والقنا ... عليه بهاء حين يبدو ويقبل
إذا نحن شبهناك بالبدر طالعاً ... بخسناك حقاً أنت أبهى وأجمل
ونظلم إن قسناك بالليث فى الوغى ... فإنك أحمى للذمار وأبسل
ولست ببحر أنت أعذب مورداً ... وأنفع للراجى نداك وأشمل
ولا وصف إلا قد تجاوزت حده ... ولا سيب إلا سيب كفك أفضل

"فالمتوكل" أشبه ما يكون بأبيه "المعتصم" فى صفاته كلها، ومنها شجاعته، ويظهر ذلك واضحاً عندما يحمل السيف والقناة لقتال الأعداء، ولو شبه بالبدر جمالاً وبهاء لكان ذلك ظلماً واضحاً له؛ فهو أبهى وأجمل، ولو شبه بالأسد شجاعة وقوة وافتراساً لأعدائه، فهذا ظلم آخر له؛ لأن "المتوكل" حامى حمى الدولة وقائم بأمور الخلافة يرعاها ويراقب ربه فى ذلك؛ فهو أشجع من الأسد الذى يحمى عرينه فقط، ثم يضيف صورة أخرى وذلك إذا شبه "المتوكل" بالبحر كرماً وجوداً؛ لأن كرم الخليفة وجوده أعم وأشمل؛ فقد عم نفعه الخلائق تحت لوائه، ولكى يقطع الشك باليقين أعلن أن كل وصف يرد على الذهن فهو أفضل منه، وكل عطاء يصيب منه الناس فعطاؤه أكثر منه.

من هنا حق للمسعودى أن يقول: "وله فى الحبس شعر معروف لم يسبقه إلى معناه أحد وهو قوله: "قالوا حبست..."[١].

وحق لأبى الفرج الإصفهانى أن يقول: "وأحسن شعر قاله فى الحبس قصيدته التى أولها قالت حبست"[٢].

وحق لابن خلكان أن يقول: "وله وقد حبس أبياته المشهورة التى أولها قالوا حبست، وهى أبيات جيدة فى هذا المعنى ولم يعمل مثلها"[٣].

وحق لابن شرف القيروانى أن يقول: "وأما على بن الجهم" فرشيق الفهم... وله فى الغزل الرصافية، وفى العتاب الدالية، ولولم يكن له سواهما لكان أشعر الناس بهما[٤].

---

(١) القصيدة الدالية قالت حبست. انظر: مروج الذهب للمسعودى جـ٢/٢٧٤.

(٢) انظر: الأغانى جـ١٠/٢١٣ مصدر سابق.

(٣) انظر: وفيات الأعيان جـ١/٤٤٢، مصدر سابق.

(٤) انظر: أعلام الكلام ص (٢٣)، مصدر سابق.

ونحن نؤيد ما قاله هؤلاء النقاد؛ فهو ينطرح على ما شابه هذه القصيدة من شعره، ومنه اللامية التى اقتطفنا منها هذه الأبيات؛ فهى تدور حول المعانى التى حملتها الدالية المشهورة.

الخـــاتمـــة

وبعد؛ فهذا هو جهد المقل جرى حول دراسة أربعة أغراض مـــن شـــعر "على بن الجهم" للوقوف على ملامح النجابة والفهم لديه منذ صغره؛ فقـــد نظـــم الشعر صغيراً، ونبغ فى نظمه والعلم به كبيراً، فضم إلى كبار الـــشعراء الـــذين تفخر بهم اللغة العربية فى كل زمان ومكان؛ فقد ملكوا زمام الـــصياغة الأدبيـــة بعد أن رزقوا نجابة وفهماً وملكة مكنتهم من ذلك فأدوا الأمانة كاملة والرســـالة واضحة جلية.

وأرجو- مخلصاً- أن أكون قد وفيت بما قد عزمت عليه، ونصبت جهدى له، فإن كان ذلك التوفيق فمن الله وإن كان تقصير فمنى ومن الـــشيطان، كمـــا أرجو أن يكون هذا البحث المتواضع فاتحة خير لمن يريـــد أن يـــضيف جديـــداً فدائرة شعر الشاعر واسعة وبحره عميق ما بلغت نهايته بعـــد؛ ولكـــل باحـــث وسائله وأدواته يستخرج بها من هذا البحر ياقوتاً ومرجاناً.

والله من وراء القصد، نسأله أن يوفقنا لخدمة لغة كتابه الكريم إنه ولى ذلك والقادر عليه، وهو نعم المولى ونعم النصير،

الأستاذ الدكتور

السيد فتح اللّه عبدالعزيز غزالة

أستاذ الأدب والنقد المساعد فى كلية اللغة العربية فرع جامعة الأزهر بالمنوفية

كفر الشيخ فى ٢٠١٠/٧/٢١م

أهم المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم.

٢- الحديث الشريف.

٣- أعلام الكلام لابن شرف القيروانى، الطبعة الأولى ١٣٤٤هـ/ ١٩٢٦م.

٤- الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى طبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٦م.

٥- دراسات فى النص الأدبى (العصر الحديث) د/محمد عارف محمود حسين ود/حسين على محمد، مطابع الوفاء الحديثة- الشهداء- منوفية ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.

٦- ديوان "على بن الجهم" تحقيق خليل مردم بك، دار صادر بيروت- لبنان ١٩٩٦م.

٧- العصر العباسى الأول د/شوقى ضيف، دار المعارف طبعة تاسعة ١٩٨٦م.

٨- العمدة لابن رشيق القيروانى تحقيق محمد محيى الدين عبدالحميد، دار الجيل طبعة خامسة ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

٩- عمود الشعر العربى فى ميزان النقد الأدبى د/عبدالفتاح على عفيفى طبعة السعادة طبعة أولى ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

١٠- عناصر الإبداع الفنى فى رائية أبى فراس د/محمد عارف محمود حسين مطبعة الأمانة طبعة أولى ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

١١- الكامل فى التاريخ عز الدين بن الأثير، تصحيح عبدالوهاب النجار، دون تاريخ.

١٢- مروج الذهب للمسعودى تحقيق يوسف أحمد داغر، نشر دار الأنـــدلس، بيروت ١٩٧٣م.

١٣- المعادل الموضوعى فى الشعر الجاهلى د/كاظم الظواهرى، دار الهدايـــة للطباعة والنشر والتوزيع ط أولى سنة ٢٠١٠م.

١٤- موسيقى أوزان الشعر العربى دراسة تطبيقية د/السيد مرسى أبوذكرى ط أولى ١٤٢٢هـــ/ ٢٠٠٢م.

١٥- الموشح فى مآخذ العلماء على الشعراء للمرزبانى، دار التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٧م.

١٦- نقد الشعر لأبى الفرج قدامة بن جعفر تحقيق وتعليق د/محمد عبـــدالمنعم خفاجى دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

١٧- النهاية لابن الأثير فى غريب الحديث والأثر.

١٨- وفيات الأعيان لابن خلكان، تحقيق إحسان عباس دار الثقافة، بيـــروت، لبنان، دون تاريخ.